حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com
العدد الثاني/السنة الأولى/(يناير-مارس)2006
الحج... ـ م.فتح الله گولن
شبابية القرآن ـ أ.د.م.سعيد رمضان البوطي
وسطية الأمة الإسلامية ـ د.محمد عمارة
فلسفة الموت عند بديع الزمان ـ أ.د.مصطفى بنحمزة
قوافل الحج في العصر العثماني ـ أ.د.الصفصافي أحمد القطوري
دور الشجر الأخضر في خزن طاقة الشمس ـ أ.د.زغلول النجار
ISSN 1306-1879
9771306187009
02

الافتتاحية

آفاق حراء

لسنا –بفضل الله– هواة كلام نلوكه ونثرثر به، ونطلقه على عواهنه بلا ضابط من منطق يضبطه، أو عقل يعقله.

وليس من هَمِّنا أنْ نكرر ما قيل ويقال دون إعمال فكر أو إنفاذ نظر، ولو فعلنا هذا لم نأتِ بجديد، ولم نَرَ ما يوجبُ –أصلاً– ميلاد «حراء»، لأنها لن تكون عندئذ سوى بضاعة كلامية مزجاة في سوق الكلام لا تضيف إلى المكتبة الاسلامية شيئاً جديداً، وهذا ما نربأ بأنفسنا أن نكونه ولـ«حراء» أن تكونه.

تؤمن هذه المجلة –وبكل تواضع– أنّ عندها شيئاً جديداً تريد قوله، وخطاباً دعوياً مبتكراً تخاطب قرّاءَها به، وهي –بكل تواضع مرةً أخرى– ترى أنها في سبيل إنشاء مدرسة فكرية إيمانية تسعى لريادة قوى المسلم الإدراكية إلى المستوى الذي يؤهله لمناقشة التحديات الثقافية والحضارية التي تحاصره من كل جانب. إنها –وبمعية القارئ الكريم– في طريق استقصاء المشيئة الكونية ومحاورة نواميس الكون والطبيعة التي بيدها مفتاح مغاليق كل ما أتت به حضارة اليوم من علوم وتقنيات.

وهذه المجلة ترى في العلم مطلقاً قوى إلهية محركة وهادية وإن كانت خافية غير ظاهرة ولكنها موجودة لا شك في وجودها. وكما لكل شيء روح ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ فللعلم روح كذلك. وروحه هو القوى التي أودعها الله فيه، ومن هنا جاء استعراض المجلة لقوى الطبيعة في جملة من المقالات والأبحاث، وذلك لتنشيط الحافز العلمي لدى المسلم، ولاستثارة فضوله الذهني.

وهذه المجلة ترى في الفوضى الفكرية والروحية –التي تكاد تكون منظمة ومتقصدة إلى حدٍ ما– من كبرى مشاكل هذه الأمة. وهي –أي المجلة– جادّةٌ في تشخيص هذه الظاهرة الغريبة وتحليلها وبيان أسبابها وأساليب معالجتها، وهي ترى أن هذه الفوضى عذاب تتجرعه الأمة، إلاّ أنه لا يُعدّ دليلاً على ضعفها، بل هو دليل على قوة فيها، إلاّ أنها مشتتة تنشد التوحيد النفسي ولكنها تخطئ الطريق إليه، فغدت حياتها تعباً مملاً بعد أنْ جابت تلك المتاهات المحيرة في البحث عن نفسها دون طائل.

فتوحدها النفسي والإيماني والفكري موجود في كتاب ربها وهو القرآن الكريم، وسيظل الشقاء ملازماً لهذه الأمة حتى تعود إلى كتابها، هذا الكتاب الخالد الذي يفنى الوجود ولا يفنى، وتقوم قيامة العالم ويظلّ هو قائماً لا يحول ولا يحور.

وفي هذا المعنى تتحرك أقلام كبار أساتذتنا الذين تصدرت مقالاتهم صفحات هذه المجلة، ونحن في الوقت الذي نشكر لهؤلاء الأساتذة الأفاضل الذين ساهموا بأقلامهم بتحلية صفحات هذا العدد من المجلة نود أن نعتذر لأساتذتنا الآخرين الذين لم تتح لنتاجاتهم فرصة أن ترى النور في هذا العدد وقد يأتي دورهم في أعداد لاحقة.

كما نود أن نشير إلى أننا قد أنشأنا موقعاً على «الانترنت» باسم المجلة يمكن مراجعته لمن يريد.

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. ■



العدد الثاني / السنة الأولى

(يناير – مارس) ٢٠٠٦

التصور العام



* حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الايماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
* تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
* تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
* تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

* أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
* ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
* يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
* تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
* المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
* تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
* النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
* للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
* مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
* يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

المحتويات



مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:

Işık Özel Eğitim Tic. Ltd. Şti.

صاحب الامتياز
Publishing Director
أنس أركنه
mergene@hiramagazine.com

رئيس التحرير
Editor - in - Chief
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

مدير التحرير
Managing Editor
أشرف أونن
eonen@hiramagazine.com

الإخراج الفني
Graphic Designer
أسيد إحسان الصالحي
usalihi@hiramagazine.com

المركز الرئيس
Hira Magazine
Kaynak Publishing Group
Emniyet Mah. Huzur Sok. No:5
34676 Üsküdar-İstanbul/Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902163185314
e-mail: hira@hiramagazine.com

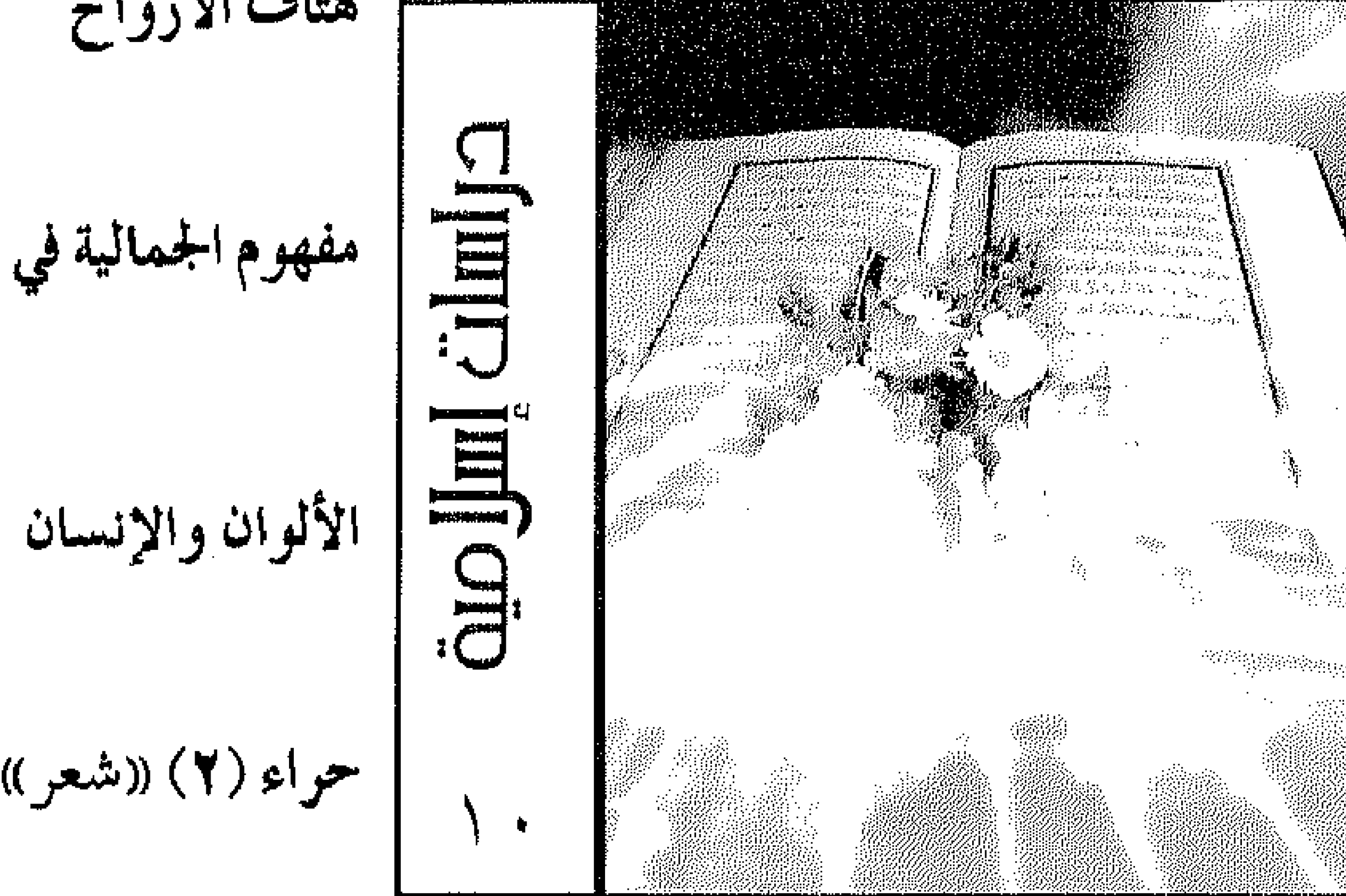
الاشتراكات/مركز التوزيع
٧ ش البرامكة - حي السابع - م. نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: ٢٠٢٢٦١٩٢٠٤
المحمول: ٢٠١٢٣٧٨٥١٩٢
جمهورية مصر العربية
sub@hiramagazine.com

الطباعة
International printing house
P.O BOX 312
Public Free Zone, Nasr city
Tel: 0202 2740740
Heliopolis - Cairo
Egypt

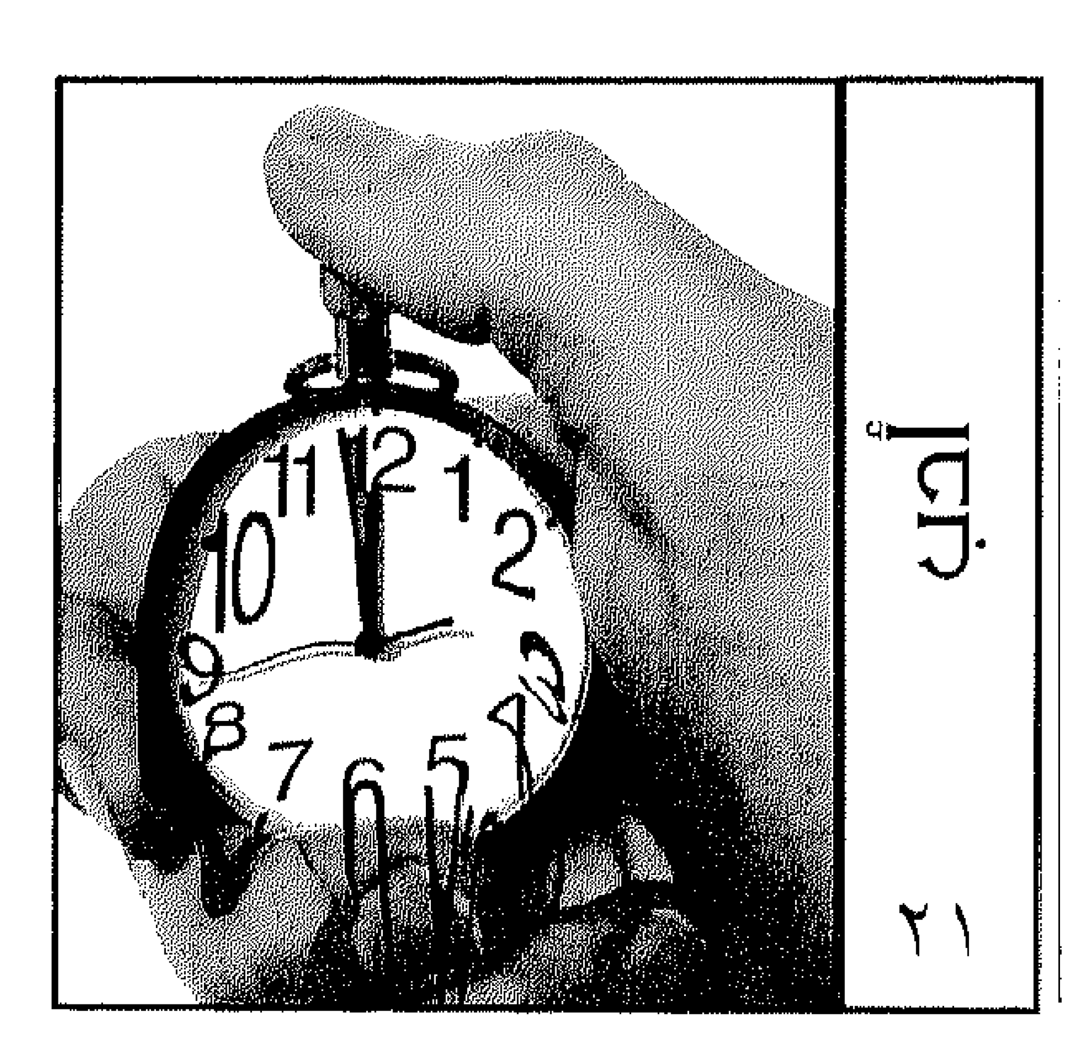
رقم الإيداع
١٣٠٦-١٨٧٩



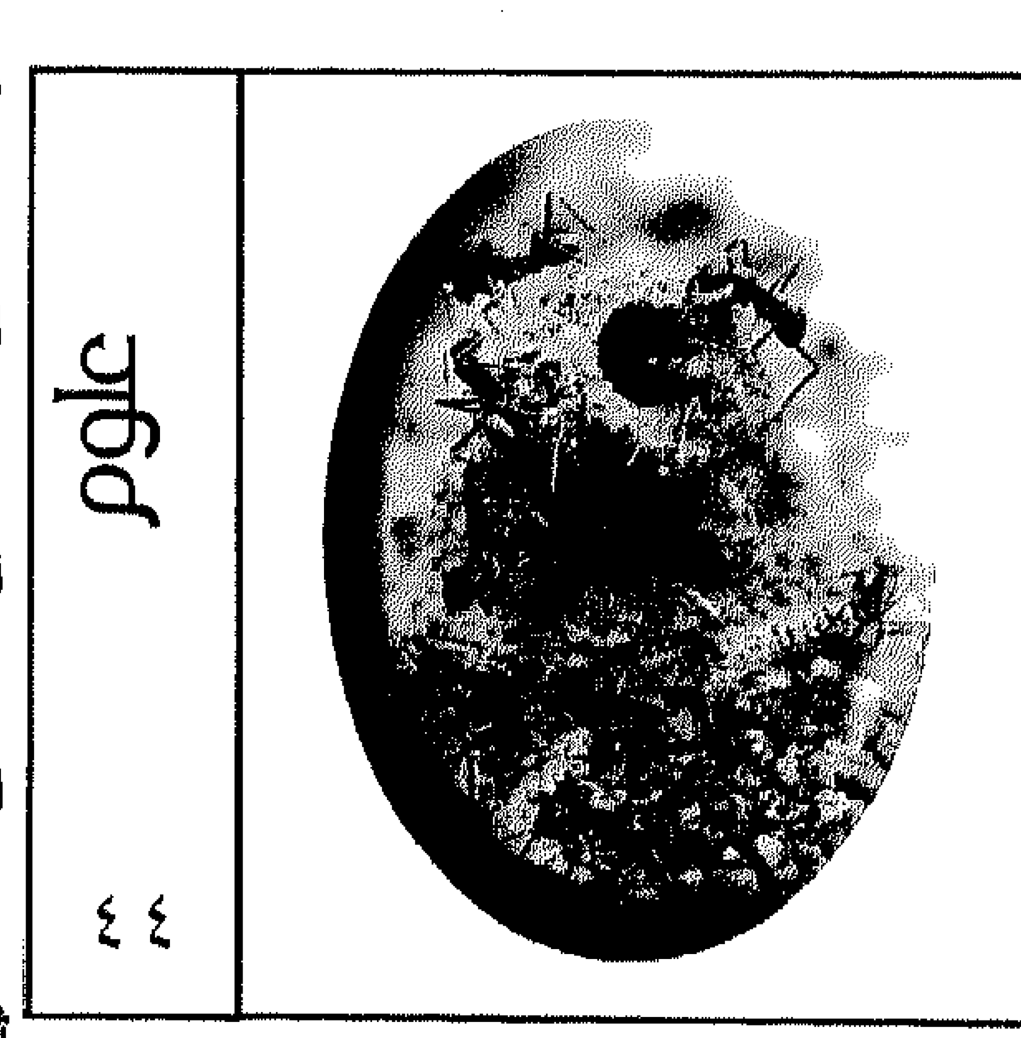
المقال الرئيس ٤



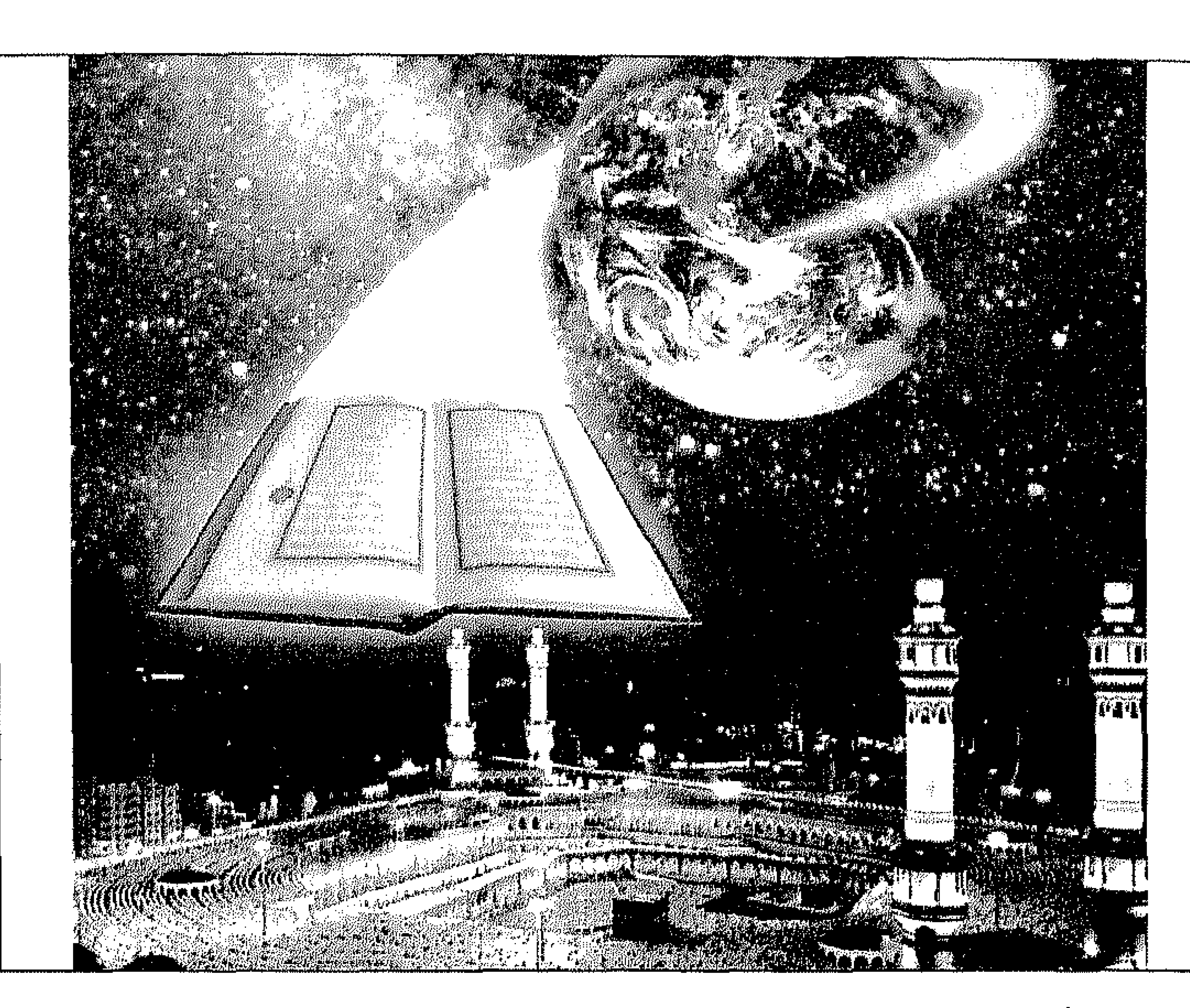
دراسات إسلامية ١٠



أدب ٢١



علوم ٤٤



الحج...

م. فتح الله كولن

يأتي الحج بمعنى القصد والتوجه. ولكن ليس من الصحيح حبس معناه ضمن إطار مجرد القصد والتوجه. فالحج يطلق على زيارة تتم في وقت مخصوص بشعائر معينة لأماكن محددة. وهو عبارة عن القيام بالإحرام في أيام محددة من أيام السنة بنية الحج والتوجه للوقوف في عرفة والطواف حول الكعبة. والإحرام شرط الحج، أما الوقفة على عرفات والطواف حول الكعبة فمن أركانه.

يتوجه كل سنة مئات الآلاف من الناس إلى بيت الله من جميع أنحاء العالم ضمن شريط مبارك من الزمن، فيزورون أماكن معلومة حددها لهم صاحب الشريعة ضمن أصول وشعائر معينة حيث يؤدون واجباتهم ويتطهرون من آثامهم، فالحج فريضة من الفرائض الخمس بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ (آل عمران: ٩٧).

الحج يؤسس الوحدة الاجتماعية

الحج شعيرة إسلامية تؤسس الوحدة الاجتماعية بين المسلمين، وهي شعيرة شاملة وواسعة إلى درجة أنه لا يوجد نظير لها من ناحية الشمول والوسعة فوق هذه الكرة الأرضية، ولا عند أي جماعة أخرى. وتمتد الكعبة بتاريخها -وبكل ما تحويه من معان مقدسة- إلى آدم عليه السلام وإلى ما قبل خلقه، ثم إلى إبراهيم عليه السلام الذي أعاد تعميرها من جديد بعد تعميرات عديدة سابقة. والكعبة بيت التوحيد المرتبط بالملة الإبراهيمية، وبالحقيقة الأحمدية قبل الخلق وفي مرحلة العماء، ورحم للنور المحمدي، وقبلة جميع الأديان السماوية، ومركز للتوحيد بحيث لا يوجد هناك أي بيت أو مبنى يكون نظيرا لها أو مثيلا من هذه الناحية.

يتوجه في كل عام مئات الآلاف من الناس إلى هذا المكان السامي لكي يؤدوا وظيفة العبودية لله تعالى ويزدادوا قرباً منه في هذا الشريط المبارك من الزمن بالعبادات التي يؤدونها، حيث يتنفسون مشاعرهم وأفكارهم من خلال منافذ هذه العبادات، ويجددون عهود إيمانهم، ويتطهرون من أدران آثامهم، ويتذكر كل واحد منهم واجبه نحو الآخر ومسؤوليته تجاهه. ويؤدون جميع أمورهم الاجتماعية والاقتصادية والإدارية والسياسية ضمن خلفية وعلى أرضية من العبادة المتوجهة لله تعالى ومن الشعور بالعبودية له، حيث ترقّ القلوب، وتتسع المشاعر حتى تبلغ طور مدّها وتصاعدها، فيعودون إلى بلدانهم بعزم جديد وبقوة جديدة وشوق نضر.

الحج قوة للروح واطمئنان للقلب

يذهب كل واحد منا إلى الحج عندما ندرك أن الأدران قد أصابت مشاعرنا ولوّثتها. وعندما نبدأ بالسفر يخيل إلينا أننا ولجنا من باب لم نعرفه ولم نعهده في السابق إلى عالم آخر من المعاني،

ونؤدي الشعائر، الواحدة منها تلو الأخرى، ونحس بها ونصل إلى أعماق معانيها. وبينما نحن في الطريق ونقطع الجبال المهيبة، ونشبع أعيننا وقلوبنا بعلامات الإسلام وشعائره، نشعر بهبوب نسيم الحج الدافئ. ونحن نحس بهذا النسيم الدافئ أينما كنا سواء على مقاعد السيارات أو في غرف القطارات أو البواخر أو على مقاعد الطائرات أو في غرف الفنادق أو في صالونات وقاعات المسافرين أو حتى في الأسواق. ومهما كنا متعودين على وسائل السفر هذه أو على هذه الطرق، فإن الأيام والأسابيع التي يستغرقها السفر تكون مملوءة بمعان روحية متناغمة، وبهبات وأفضال، حتى كأننا نستحم بمشاعر القرب والوصال وبأنواع الجمال والشعر والرومانسية، فيكتسب الروح قوة والقلب اطمئنانا، ونحسب أننا أمام باب سري يؤدي إلى عالم خاص مملوء بأنواع من الجمال الساحر. وهذه الرحلة المباركة والمشاعر التي تتخللها تَهَبُ لعالم الأحاسيس لدينا قابلية حدس وشعور إلى درجة أننا نحسب والاطمئنان يلفنا –ونحن بحالة روحية خليطة من البهجة، وأحياناً بحزن خفيف ناتج عن حالة المراقبة الداخلية للنفس– وكأننا نخطو في رواق من أروقة الآخرة.

يرى أصحاب النظرة الصائبة أن الكعبة تنظر من ناحية إلينا، ومن ناحية أخرى إلى ما وراء هذا العالم المادي... إلى عالم الأبد... تبتهج أحياناً... وتغتم أحياناً أخرى... ونستطيع أن نطالع في وجهها الذي نستطيع تشبيهه بوجه إنسان وقور ورزين، له تجربة آلاف السنين، وكأنها تريد أن تبث لنا شيئا، أو كأنها تخاطبنا وتهمس بأبيات شعر:

تعال إليّ أيها العاشق المتخفي... تعال!
هنا حريم خاص... هنا مقام الحرم،
لقد طالعتُ فيك أمارات الوفاء...

كأن الكعبة أُمٌّ تمسك بأيدي أطفالها

كأن الكعبة حسب موقعها ووضعها أمّ أو جدة جالسة في أفضل مكان في البيت لتشارك أولادها وأحفادها مسرّاتهم وأحزانهم، وتعيش آلامهم. تجول بنظرها فيما حولها، تحزن أحياناً وتبتسم أخرى. ويحسب الإنسان وهو يطوف حولها في مدينة أم القرى كأنه طفل تمسك أمه بيده بقوة ليشعر بمزيد من الأمان. أجل!.. إن الإنسان وهو يطوف ضمن سيل من مئات الآلاف من الناس يحس وقد تصاعد عنده الشعور بالدار الآخرة بأنه متوجه لله تعالى بكل حب وشوق، وفارٌّ إليه جلّ جلاله، حتى ليكاد يغيب عن وعيه. وهو عندما يهرول وعليه ملابس الإحرام، ويرمل في الطواف وأكثر من نصف جسمه عار، تلفه المخافة من جهة، والأمل من جهة أخرى، ويعيش حالة من الانفعال وهو يسرع في طوافه هذا. ويستحيل شرح وتعريف الجو العميق الساحر الذي يحيط بالإنسان وهو يطوف بالبيت العتيق المبارك وما يشعر به أثناء الطواف والسعي من راحة نفسية ومشاعر رومانسية. وقبل أن يبدأ الإنسان بالطواف يكاد يسمع –وهو يشاهد منظر الزحام الذي يذكر بزحام يوم القيامة– صمت الحرم الإلهي المنزوي وشعره. ولا يدري أحد أي الأبواب السرية تنفتح أمام الأرواح السامقة التي تدع أنفسها تنجرف في سحر جو الطواف، ولا أي مطارق خفية يلمسونها، ولا أي نوافذ سحرية تنفتح أمامهم على العالم الآخر؛ حتى أننا ونحن نطوف حول البيت العتيق بمشاعر فوارة ومتجددة في كل لحظة، نندهش ونتعجب من الألطاف التي تنهمر على قلوبنا من المنافذ المنفتحة في خيالنا، ومن البوارق التي تبرق في صدورنا، ومن الأسرار التي تطير بأرواحنا؛ ونتصرف وكأن في كل خطوة نخطوها باباً سرّياً سينفتح أمامنا مع دعوة لنا للدخول منه، ونحسب أننا نكاد نقطف لذة لم نعرفها من قبل، فنحس أن قلوبنا تدق بعنف. عندها نشعر بعظمة الكعبة... هذه العظمة التي خالطت قلوبنا من قبل وسكنت فيها، وبكل عمقها... ونحس بأن نبض سحرها يسري في أنحاء جسدنا، فنرتجف من رأسنا حتى أخمص قدمنا.

ومع أن في الإمكان تفسير بعض هذه الخواطر وإسنادها إلى أسبابها، إلا أننا نبقى صامتين أمام الكثير من السنوحات والألطاف التي تَرِد إلينا متجاوزة جميع مقاييسنا وتقييماتنا. لأن الكعبة وما يحيط بها من مظاهر مادية، حتى وإن كانت تعني شيئا، ولكن لكون أسلوبها أخرويا، ومعانيها ضبابية ومحتواها مغلقا وغير معروف، فليس باستطاعة الجميع فهم ما تريد الإشارة إليه. ومع ذلك فإن الجميع سواء أكانوا من العامة أم من الخواص، من الشباب أم من الشيوخ... كل فرد من هؤلاء له نصيب من المعاني التي يدركها، وإن لم يستطع التعبير عنها.

في الكعبة سرُّ الوجود

وبجانب كون الكعبة بموقعها بين الجبال والتلال المهيبة تشبه زهرة زنبقة الماء منشقة عن برعمها، فهي بمثابة فانوس سحري

يحمل سر الوجود، ومسقط سدرة المنتهى، أو هي بلورة من عصارة العوالم التي وراء السماوات. وعندما يطوف الإنسان حول هذا الفانوس المحاط بالألغاز، يحس بأمور خفية بسعة الدنيا الدائرة، ويخيل إليه أنه ينظر من خلال موشور مرتبط بالسدرة المنتهى إلى عوالم فيما وراء السماوات.

أجل! . فكل من لجأ إلى حرمها، يكتسب أعماقا في روحه ومشاعره وفكره. فعندما يفكر بوجوده وبالكعبة، ويستمر في التفكير في العلاقة بين هذين العنصرين اللذين هما مطمح النظر الإلهي، تنفتح أبواب سرية تنقلهم إلى عوالم سرية لم يكن لهم عهد بها من قبل. ولا شك أن مثل هذا الشعور والحدس، ومثل هذا المعنى والروح لا يحصل ولا يظهر إلا من اتحاد إيمان صحيح وقوي مع عيش حياة إسلامية كاملة، مع إخلاص ويقين تامين، وإلا لم يكن للقوالب المجردة مضمون حقيقي.

بفضل هذا الغنى وهذا العمق الموجودين في الكعبة، يبدو كل شيء عندما يصطبغ بصبغة الحج وبشعوره فوق قيمته عن الأوقات الاعتيادية، وبمهابة أكثر وألوان أجمل. عند ذلك يدع الإنسان نفسه لهذا السحر ليأخذه ويرتفع به ضمن حلزون من النور ليصعد به ويرتفع ليصل إلى معبوده. وصلاة الطواف التي يؤديها صاحب هذا الروح الواصل إلى مثل هذه الذروة تكون مثل سجدة الشكر، ومن يشرب من ماء زمزم يكون كأنه يشرب من كوثر الجنة أو يعب من شراب الوصال.

إنْ قُمْنا بتشبيه الطواف حول الكعبة حسب التعبير الصوفي بـ«السير في الله» الذي يعد في الأكثر سياحة حول شعور مبارك ومحاولة لزيادة العمق النفسي، فإن الذهاب والإياب في مواضع السعي يمكن أن نفسره بمعاني «السير إلى الله» و«السير من الله» الذي هو عنوان العروج من الخلق إلى الحق تعالى، ومن الحق إلى الخلق. أجل!. . ففي السعي بين الصفا والمروة يعيش الإنسان طوفان هذه المشاعر.

في «السعي» تسكب مشاعر التضرع

يعيش الإنسان في أثناء «السعي» شعور التضرع والطلب والدعاء والاستمداد، ويعيش شعر وموسيقى الوصال وداء الوصال. فكأنه لا يفتر يطارد شيئا مهما. ويستمر السعي حتى يظهر ما يسعى إليه. وكل ما يظهر من أثر أو أمارة في هذا السعي يضاعف انفعال الإنسان ويثير مشاعره حتى تنطق الصدور بأمثال ما قال الشاعر:

انظر إلى حال هذا المسكين. . .
أصبح عبدا لشَعرة من شعر الحبيبة. . .
كلما غمس يده في شهد الحب. . .
ظمئ. . . فطلب الماء. . .

يتمتم بهذا وهو يسعى هنا كطوافه حول الكعبة. وفي مقابل محاولته عند الطواف حول الكعبة النزول إلى أعماق نفسه، نراه في السعي بين الصفا والمروة يسعى على خط مستقيم وقد دهمه شعور نبوي بالعيش من أجل الآخرين؛ بالضحك من أجلهم وبالبكاء من أجلهم، بل حتى بالموت من أجلهم. تراه لا يقر له قرار، ولكن لا يفلت الحساب من يده. تراه قلقا، ولكن دون أن يتخلى عن الأمل. وتحت الأضواء الذهبية للسماء، وفي الساعات الزرقاء لموسم الحج تراه يتلوى من حسرة داء وِصال جديد، ومن عدم عثوره تماما على ما يبحث عنه. فتراه يذهب ويجيء. . . يهَرول أو يمشي الهوينا. . . يصعد تلا وينزل من تل. . . يلفه التردد والاضطراب. ينغمس أحياناً في شلال نهر الناس المهرولين في المسعى ليعبر عن أحاسيسه ضمن كورس أو فرقة جماعية، وأحياناً يكون في حالة روحية يخيل إليه معها أنه لا يرى شيئا ولا يرى أحدا وأنه يسعى ويطوف منفردا، يبدو أمامه شبح السيدة هاجر عليها السلام. . . تراه يترنم وهو يرتشف من كأس قلبه:

اطلب أيها الولهان الحبيبة التي أهدابها،
مثل الأسنة لتطفئ لوعة الفراق. . .
أنا ظامئ، فابحث لي عن ماء في هذه الصحراء،
خوف جهنم قد جثم على قلبي وأحرقه،
كل أملي أن يرش غيث إحسانك على قلبي الماء. . .

بهذه الكلمات ينتظر رحمة تنزل عليه من السماء لتطفئ نار قلبه. وإلى جانب ناره التي تلهب روحه وتحرقه يتلوى من حسرة ومن ألم الانتظار الذي لا ينتهي. أحياناً يهبّ في المسعى نسيم بارد من وراء أفق هذا العالم، ولكن هناك في الأغلب حزن يلفه الشوق، أو شوق يلفه الحزن، مع معاناة عشق قد صبغه الرجاء والأمل.

كثيرا ما يختلط الخيال بالحقائق في المسعى، فيبدو الناس هناك أحياناً وقد لفهم صمت عميق. . . وأحياناً تسمع أصوات بكاء متقطع. . . أحياناً كأنهم يساقون إلى الميزان وأحياناً كأنهم يركضون نحو الكوثر، فهم بين خوف ورجاء وبين خشية وفرحة. . . يستمرون في الذهاب والإياب وفي الصعود

والنزول... الدقائق والساعات هناك مع كونها خفرة وحَيِيَّة فهي كثيرة الطلب، فهي تطلب الاهتمام على الدوام. وإلا فستزول وتنمحي دون أن تترك أي أثر.

كلما اقتربت الأيام من العيد تلوّن المطاف والزمزم والمسعى بشعور خفي من الحسرة والغربة إلى اللون اللازوردي، وتبدأ الكعبة بإنزال ستارة نوافذها شيئا فشيئا. ومثل كل الحوادث التي تدل على حقيقة الفناء وتشير إليها يفهم الإنسان أنه متى آن وقت الرحيل فعليه أن يرحل، وأنه لا بد أن يأتي يوم سيرحل فيه عن هذه الدنيا، وعند ذلك ينزوي في عالمه الخاص ويعيش نوعا من الانزواء الروحي.

في «عرفات» تسمع صرير أبواب السماء

ولكن لم ينته بعد كل شيء... فهناك طريق طويل، ورحلة طويلة تنتظر هؤلاء السائرين إلى الله تعالى. فهناك «مِنًى» بلغزها الغامض، وبسحرها الذي يدير الرؤوس منتصبة على الطريق تنتظرهم... وهناك «عرفات» التي كأنك تسمع فيها صرير أبواب السماء ترقبهم... وهناك «المزدلفة» التي لن تدَعهم قبل أن تذيقهم مأدبة روحية... وبعد خطوات هناك المكان الذي يُظهِرون فيه كامل تسليم أنفسهم لله ويرجمون عقولهم المعاشية الدنيوية، ويضحون عن أنفسهم ويعيشون في عوالم أحاسيسهم عيد البراءة والتطهر. ثم يتوجهون إلى الكعبة وإلى كعبة قلوبهم... يتوجهون من الله إلى الله، وينهون عروجهم ونزولهم، وينثرون ابتساماتهم على حظوظهم بإلهام من تداعيات «الفناء في الله» و«البقاء بالله».

«مِنًى» رمز سماوي للتضحية والحنان

«مِنًى» التي فرشت رداءها في عالم التضحية ببريقها الساحر تقوم بإسماع أشعارها حتى قمم تلال المزدلفة، وتحاول أن تدخل إليها، بل تود حتى تجاوزها لتسلم على عرفات... تسلّم على عرفات، وترشد ضيوفها -الذين يلبثون عندها أربعا وعشرين ساعة- وتسلمهم إلى عرفات.

«منى» بالنسبة إليّ رمز سماوي للتضحية والحنان، والمعنى الانقياد للأمر في جو من المهابة في الأرض، وحضن دافئ. هي عنوان للاستسلام وكأنه عش للإخلاص الذي لا يطلب أي مقابل أو ثمن. و«مِنًى» التي يسكنها لبضعة أيام من لا يملك بيتا أو مسكنا، ولا منزلا أو وطنا مكان وموضع سرّي. فما أكثر المشاعر التي تموج في قلب كل من لم يغلق قلبه للآخرة في هذا الموضع الحافل بالأسرار. أما نحن فنحس أن «مِنًى» قد امتزجت بأرواحنا إلى درجة أننا نحس وكأنها تنبض في قلوبنا وتعيش في أعصابنا. وما أن نخطو إليها خطوة حتى نشعر بأنها احتضنت روحنا (من الملفت للنظر أنها أول مكان احتضن رسولنا ﷺ)، وأنها تشير إلى الطرق المؤدية إلى ما وراء هذه الآفاق، وأنها تكملنا، وأنها تمتزج بعالم مشاعرنا، وهكذا نمتزج ونتوحد معها.

وبينما نبدأ بالتهيؤ في «مِنًى»، ونحاول أن نعطي أجنحة لأرواحنا، إذا بنا نرى عرفات وقد تزينت مثل غرفة عروس، وتهيأت لاستقبال زوارها مثل مرفأ أو ميناء أو ميدان أو قاعدة للانطلاق... تنتظر ضيوف الرحمن الذين يسرعون إليها بلهفةِ مَنْ ألمّ به داء الوصال... ضيوف الرحمن الذين يسرعون إليها بحثا عن احتمال جديد وإمكانية جديدة.

إلى أحضان «عرفات» يسرع ضيوف الرحمن

لعرفات نورانية متميزة، وللزمن الذي ينقضي فيها عمق آخر، بحيث إن كل روح استطاع نيل سعادة الوصول إلى هذه الحاضرة لا يفنى ولا يموت كموت غيره من أصحاب الدنيا. وكل من قضى ساعات من عمره على عرفات يتفتح طوال حياته كزهرة، ولا يشحب ولا يبهت لونه أبدا؛ فالدقائق الحانية المليئة بالعشق والوجد والشِّعر تبرق من منافذ ومن عيون أرواحنا على الدوام وتلتمع؛ ويطن في آذاننا صوت الذين يعلنون إيمانهم المزين بالعشق والوجد مغردين تغريد البلابل... يعلنون إيمانهم ومحبتهم وعرفانهم المتين المستقر في أخفى مناطق قلوبهم، فيثيرون قلوبنا التي يغمرها الشوق آخذين بأيدينا إلى لذائذ لا يمكن بلوغها، ويهيجون مشاعرنا بألطاف ناضجة تشبع كل جوع وتضع مسحة من السحر على عيوننا -مثل استغناء الموجودات التي تملك حنكة وتجربة- وتجول بنا داخل غِنى أنفسنا.

الشروق في عرفات والغروب يكون دائما في جو من المهابة والعمق. ومن المحتمل أنه ما من شاعر بليغ يستطيع الترنم بأبيات كالتي تترنم بها عرفات وتسكبها في قلوبنا، أو تهمس لنا بحكمة وجودنا وغايته. وأنا أرى أنه لا بد لكل من يرغب في الوصول إلى رقة في الروح أن يتوجه إلى عرفات مرة واحدة في عمره على الأقل، ويمتزج بجوّها ويعيشه، ويتنفس شروق عرفات وغروبها كتنفسه الأوكسجين.

أنين الإنسان وأنين «عرفات»

يعيش الإنسان في عرفات جو الدعاء والتضرع، ويطلق الآهات الحبيسة في قلبه التي ترتعش منها جوانحه. أما الأدعية بعد فترة العصر فتكون أكثر عمقا، لأنها تبدو وكأنها قد تضمخت بعطر وجوٍّ مِن وداع حزين، وتشبه الأصواتُ والأنفاس أصوات الملائكة فيما وراء السماوات، حتى تصل إلى ذروة السعة والنقاء. وكلما سمع الإنسان الآهات المنبعثة من سهل عرفات يشعر من الجو الأخروي لهذه الأصوات، ومن الرقة والشفقة والرجاء الذي يحدثه الأمل في السعادة الأبدية، بأنه قد أصبح شابا وخالدا، وأنه اتسع وولج من فرجة باب كبير. أما عندما تغرب الشمس، وينشر الظلام جناحه فوق الأفق جالبا معه مشاعر فوارة من مشاعر الوداع، نتخيل وكأن الآمال قد تجسمت وبدأت تسيل في داخلنا، وأن مشاعرنا قد تنورت بفيض عرفات وبركتها، وأننا قد انسللنا من قوالبنا الجسدية -كما يحدث في الأحلام- ويممنا شطر نَواحٍ روحية ومعنوية غير واضحة المعالم تماما، وأننا بدأنا نئن كأنين عرفات، وأننا مع غروب الشمس ذبنا وانتهينا، وأننا قد تحولنا إلى آهات مثل الآهات التي تطرق أسماعنا في عرفات، بل إلى صراخ... ونحس بأننا قد تخلصنا من أثقالنا واكتسبنا أجنحة، ونحسب أن ماهيتنا قد تغيرت وتحولت إلى ماهية روحية وكائن روحاني، فيأخذنا الذهول ونتسمر في أماكننا.

«عرفات» سفح من سفوح الرحمة

عرفات ميدان يسود فيه الأمل والقلق مثل ميدان البعث والحشر يوم القيامة، وسفح من سفوح الرحمة. هي موطن لهطول الرحمة الإلهية على قلوبنا كالغيث، كأن الحوادث كلها تجري في إطار من الأمل، وكأن الإنسان يتجول فيها طوال يومه بين مواكب الملائكة، ويتذكر الآخرة دوما في قيامه وقعوده. يتجول الناس في سهلها وكل واحد منهم كأنه قد انسلخ من كل شيء دنيوي، لا يفكر إلا بحساب الآخرة وبالميزان... يتجول كالأشباح حاملا معه قلقه وخشيته، وكذلك أمله في الرحمة الإلهية، يرجو نيل عفو ربه، ويعيش خيال نجاته وفوزه، ويستفيد من يومه الوحيد هناك ويستغله كاملاً لكي يحصل على ألطاف سَنة كاملة وإلهاماتها... يستغل هذا اليوم، ولكنه ما أن يرى نفسه في موضع آخر وفي وقت دعاء ومناسبة تضرع، حتى يرى أنه لا يستطيع إلا الاندماج في جو الدعاء والتضرع.

التوجه إلى «مزدلفة» كأنه توجه إلى الأبدية

لا مناص أمامه من هذا، لأن مزدلفة بالقرب منه تنتظره على بعد خطوات معدودة. فما أن نتلقى إشارة بأن مزدلفة في انتظارنا، حتى نترك مكاننا الذي تحف به الأضواء والأنوار في عرفات التي تبتسم لنا بسمات الأمل. وبدرجة قرب السجود من الله بالنسبة إلى الركوع، نتوجه نحو مزدلفة التي تعد عنوان القرب من الله.. نتوجه إلى مزدلفة وكأننا نتوجه إلى الأبدية، أو نسير إلى الله تعالى. في هذا المكان المبارك الذي يكون البدر آنذاك قد قارب على التمام، فتماوجت الأنوار في السهول والجبال، وفي السفوح والوديان... يبدو كأن السماء قد دنت من الأرض ونزلت إليها، وكأن الأرض قد ارتفعت إلى السماء، وتحولت إليها. وبينما تحتضننا هذه الأحاسيس نشعر كأننا -ونحن في طريقنا إلى الله- في ميناء جديد، وشاطئ جديد، وفي سفح جديد. وضمن أجواء مزدلفة التي لم تتغير منذ إقامة الكعبة، وفي وُجُوهِ الحجاج التي ينعكس عليها نور السماء، نسمع أصوات هؤلاء العباد المخلصين الضارعين إلى الله تعالى... نسمعها في أجسادنا وفي أرواحنا وفي قلوبنا. عند ذلك نتوهم أننا أصبحنا في عالم آخر، وأننا نرافق الملائكة في عالم الملكوت ونتصادق معهم... عند ذلك ندع أنفسنا تماما ونتركها في لجة رحمة الله تعالى الواسعة.

يقول ابن عباس رضي الله عنه إن سيد الأنبياء ﷺ حصل على وصفة مهمة وصريحة في المزدلفة بخصوص أمته وخلاصها، لم يستطع الحصول عليها في عرفات. وكم كان حبيبا إلى قلبي أن يكون هذا الرأي صحيحا مائة في المائة ولكان من حق المزدلفة -التي تقربنا من الله مثلما يقربنا السجود له- أن تطلب منا ضراعة خاصة، وأنيناً وبكاء آخر يقربنا من الله تعالى.

الأضواء المنبعثة من المصابيح الموجودة في أرجاء المزدلفة، والوجوه النيِّرة للحجاج، ونظراتهم التي ضببتها الدموع، وصدورهم التي تموج بالانفعالات، تضيف إلى ساحة هذا المكان المبارك -الذي لا نعرف سوى ليله- جمالا آخر يأخذ بالألباب. أما عندما يتقدم الليل فإن سحره يزداد ويتعمق. وبينما يستريح بعضهم تهيؤاً لغد حافل بالنشاط والجهد، ترى آخرين وهم يقضون الليل حتى الصباح في الصلاة والعبادة. ولا يدري أحد بماذا يفكر هؤلاء من أصحاب الأرواح السامية الذين حبسوا أصواتهم في صدورهم، ولكنهم يوصلون نبض قلوبهم إلى

قلوب أهل القلوب. . . لا أحد يدري بماذا يفكر هؤلاء، ولا ماذا يقولون، ولا ماذا يهمسون لأنفسهم، ولا ما يخطر على بالهم. أصوات قلوبهم تتردد على الدوام في مستويات عالية سامية، وتتسابق مع أنفاس الملائكة وتكون معها كفرسَي رهان. وهؤلاء العمالقة الذين تجاوزوا الزمان، يستمعون إلى قلوبهم ويتكلمون بها. وبجانبِ وقَبْلَ لحن القلوب التي يترنم بها هؤلاء، بل وقبل قبل هذا، ينصتون ويحاولون سماع جميع الأنغام التي يستطيعون جمعها في كورس واحد من ضرب ريشة مشاعرهم على أوتار قلوبهم. . . يسمعونها معا وينصتون لها معا، ثم يرتشفون ماضيهم مع يومهم هذا، وكأنهم يرتشفون نغمة مليئة بالبهجة والحبور.

وعندما تلوح علامات الفجر في الأفق تبدأ جميع المشاعر والأحاسيس التي هاجت في عرفات بالانسياب إلى مزدلفة بعد أن تكون قد تضاعفت، تنساب مختلطة بأصوات أنين وبكاء مع ابيضاض وجه السماء بعد الفجر. . . توجّهٌ إلى الله تعالى خارج أوقات الصلوات وتوجّهٌ نحوه في الصلوات. . . أما الأدعية المنسابة إلى الصلوات والموجودة فيها والتي تعد بعدا من أبعاد القرب من الله تعالى فتأخذ عمقا متميزا آخر.

كأن هذه الأدعية ملابس من حرير تحيط بأجسادنا، أو أيادٍ سماوية تضيء آمالنا، وتمنح السلوان لآلامنا، أو كأنها ماء ينزل بردا وسلاما على صدورنا التي تلتهب فيها النيران، أو كأنها صوت أذان يسمعنا الحقيقة الكبرى فيرسل الرعشة إلى قلوبنا. . . وأحياناً تقوم بجمع أشتات دنيانا السابقة، وتلم أجزاءها المتناثرة، وتسمعنا من المعاني عن حقيقة أنفسنا وجوهرها وعن خلودنا ودنيانا وعُقبانا ما يجعلنا نكتشف أنفسنا من جديد، ونتعرف على حقيقة ذواتنا، وننظر إلى الدنيا نظرة اعتبار ومن زاوية جديدة، ونشعر بقرب من دار العقبى، ونراها أكثر صفاء وأشد وضوحاً.

تستمر هذه التضرعات والتوسلات حتى شروق الشمس وظهورها في الأفق معلنة عن ميلاد يوم جديد. أما الجباه التي بقيت ساجدة حتى ذلك الحين فإنها في أثناء شروق الشمس تبدو وكأنها تشد الرحال من جديد لبلوغ قُرب آخر، وتبدأ برحلتها. أما الآن فأمامنا «مِنًى» التي أتيناها سابقا وسلمنا على وِديانها واديا واديا. . . مِنًى التي يلجم فيها أصحاب الأرواح الصافية منطقهم، ويعطون زمامهم بيد الروح. . . مِنًى التي يبدي فيها الواصلون إلى مرتبة التسليم انقيادَهم. . . مِنًى التي لجمت عقول ومنطق آلاف بل مئات الآلاف من الناس منذ عهد آدم عليه السلام إلى إبراهيم عليه السلام، ومنه إلى سيد المرسلين ﷺ، وربطت تقييمهم للأمور ووزنهم لها بالقلب. . . وأخيرا وبعد هذا كله فمِنًى هي المكان الذي تأخذ فيها النفس نصيبها بعد رجم الشيطان، وفيها يتم التمثيل الجماعي لموضوع التعبد الذي يعد أساس العبودية.

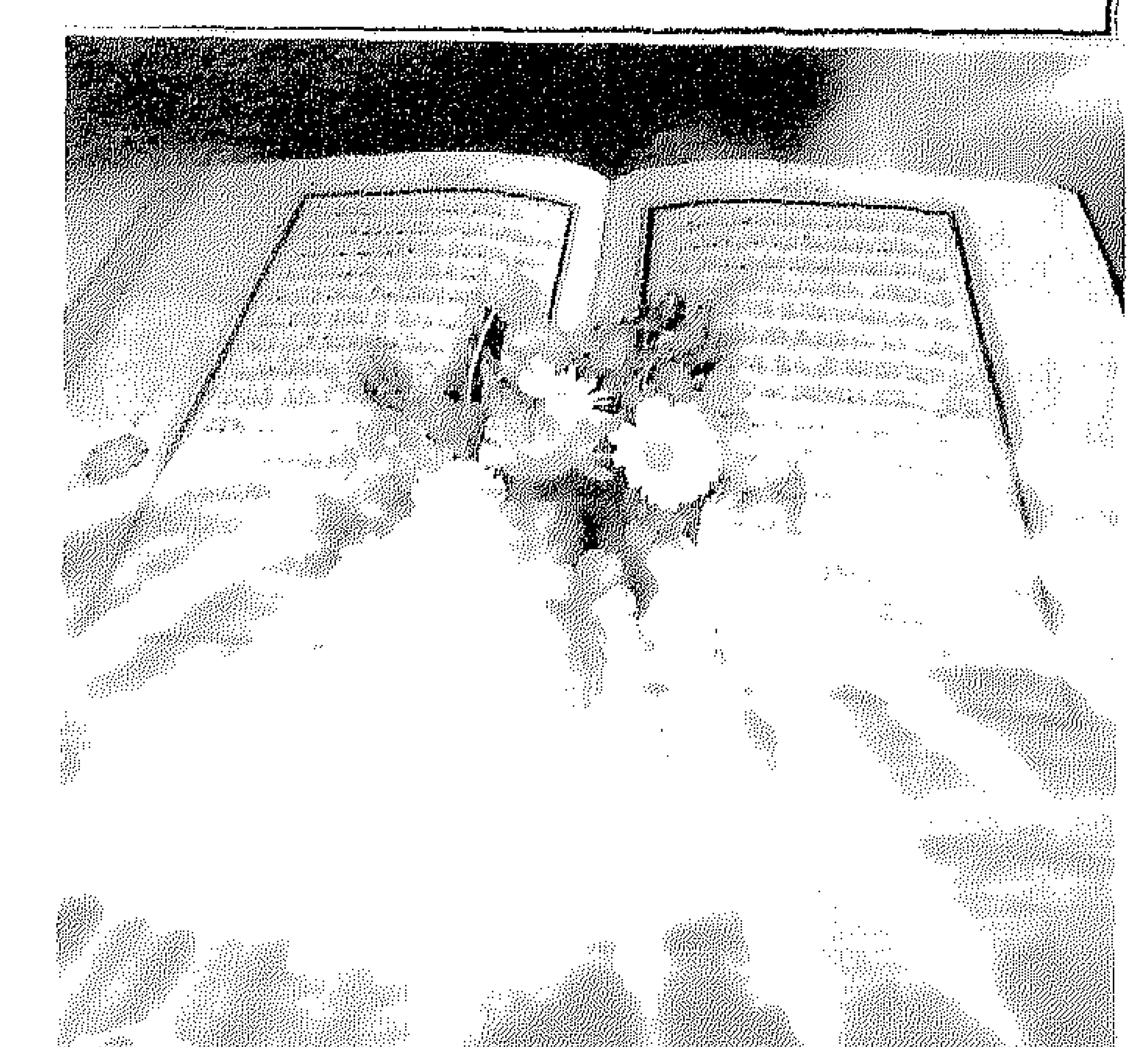
وما أكثر ما يتم عمله هناك بجانب رمي الجمرات؛ تقديم الأضاحي والحلق وتبديل ملابس الإحرام ثم أداء فرض الطواف الذي يتم في جو من مشاعر روحية عالية. . . هذا هو بعض ما يؤدى هنا.

التحلل من جميع الأنانيات

يقوم الحاج منذ مغادرته بيته وطوال طريق رحلته بالتحلل من جميع أنانياته، الواحدة منها تلو الأخرى. أما من ناحية حياته القلبية والروحية فيتكامل ويتزين مثل قطعة مزينة من الحرير. أجل!. . إن الإنسان وهو في رحلته النورانية هذه يتعرف على أقدم الحقائق التي لا تبلى أبدا، وعلى الحقائق الأزلية التي تبقى نضرة على الدوام، ويمتزج معها. يصل هناك إلى أحوال لن ينساها أبدا. أما بالنسبة لمن يدرك حقيقة وكنه ما يؤديه في هذه الرحلة الأرضية/السماوية، والألطاف الإلهية المعنوية التي تنهمر عليه، والذكريات التي يحصل عليها، فإنه يكسب عمقا قلبيا وارتباطا أقوى بالدار الآخرة. وتظل ألوان السماء، وأصوات الحجيج تملأ مخيلتنا، وتلف أرواحنا، وتتشخص أمام أعين أرواحنا طوال أعمارنا.

لا يمكن ذكر أي مكان آخر غير الكعبة وما يحيط بها، له نفس الجاذبية والسحر، وإن كان هذا مشوبا بشيء من الحزن. ففي حرمها يشاهد الإنسان في كل حين جمالا أسطوريا، ويقطف هناك كل شيء وكأنه أنضج فاكهة وأحلاها، ويأكلها. والمحظوظون الذين يصلون إلى سعادة تمريغ وجوههم هناك سيتخلصون من وهم البحث عن مكان عبادة آخر، وحتى غروب عمرهم وانتهائه لن يستطيعوا نسيان السحر ذي البعد الأخروي لهذا المكان أبدا. ■

ظاهرتان تبعثان على الدهشة في كتاب الله عز وجل (٢)



شبابية القرآن

أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي *

يعبر الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله عن شبابية القرآن وفتوّته فيقول «إن القرآن الكريم قد حافظ على شبابيته وفتوّته حتى كأنه ينزل في كل عصر نضِراً فتياً. نعم، إن القرآن الكريم، لأنه خطاب أزلي، يخاطب جميع طبقات البشر، في جميع العصور خطاباً مباشراً، يلزم أن تكون له شبابية دائمة كهذه. فلقد ظهر شاباً، وهو كذلك كما كان. حتى إنه ينظر إلى كل عصر من العصور المختلفة في الأفكار والمتباينة في الطبائع، نظراً كأنه خاص بذلك العصر، ووفق مقتضياته، ملقناً دروسه ملفتاً إليها الأنظار»[١].

«إن آثار البشر وقوانينه تشيب وتهرم، وتتغير وتتبدّل، إلا أن أحكام القرآن وقوانينه لها من الثبات والرسوخ بحيث تظهر متانتها أكثر، كلما مرت العصور»[٢].

عصر أصمّ أذنيه عن سماع القرآن

«نعم، إن هذا العصر الذي اغترّ بنفسه، وأصمّ أذنيه عن سماع القرآن أكثر من أي عصر مضى، وأهل الكتاب منهم خاصة، أحوج ما يكونون إلى إرشاد القرآن الذي يخاطبهم بـ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ حتى كأن ذلك الخطاب موجه إلى هذا العصر بالذات، إذ إن لفظ «أهل الكتاب» يتضمن معنى أهل الثقافة الحديثة أيضاً. فالقرآن يطلق نداءه يدوي في أجواء الآفاق ويملأ الأرض والسبع الطباق بكل شدة وقوة، وبكل نضارة وشباب، فيقول ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ (آل عمران: ٦٤)»[٣].

ثم إن الأستاذ رحمه الله تعالى أخذ يعرض من الأمثلة التطبيقية ما يؤكد فتوّة وشبابية القرآن الباقيتين في كل عصر، على حدّ تعبيره.

وأقول: إن هذه المزية واحدة من أخطر وأروع المزايا التي لا تنطبق إلا على كتاب الله عز وجل: القرآن. غير أن هذه المزية لا تولد وتستبين إلا في رحم الأجيال والعصور المتعاقبة. فالمسلمون في صدر الإسلام وعصوره الأولى لا يستطيعون أن يلاحظوا فيه هذه المزية لجهلهم بما ستأتي به العصور اللاحقة من أعراف وتطورات ومعارف وعلوم جديدة، حتى يستبين لهم موقف القرآن منها وحديثه عنها. أما اليوم وقد تراكمت على ساحة التاريخ ألوان من التقلبات والأفكار والاكتشافات والأحداث، متجمعة من سلسلة العصور المتلاحقة، فإنّه بوسعنا، إن عدنا نتأمل في خطاب القرآن لأصحاب هذه العصور كلها، أن نتبين جدّة القرآن، أو شبابيته على حد تعبير بديع الزمان، من خلال تآلفه مع سائر ما قد مرّ أو يمرّ اليوم على دنيا الناس من تطورات في أعرافهم وأفكارهم وظروفهم وعلومهم.

يركز بديع الزمان حديثه عن جدّة القرآن، رغم تقادم ذلك العصر الذي نزل فيه، على ما يحمله القرآن للناس من مبادئ ودساتير وقيم حضارية وسلوكية، ويبين لنا مدى جدّتها ومدى احتياج الناس في كل عصر إليها، في مقابل تهافت الجديد الذي يخالفه والذي تبتدعه اجتهادات الناس مع تقلبات الأزمنة والعصور، ويضرب لذلك أمثلة كثيرة.

القرآن يخاطب جميع المستويات الثقافية

إلاّ أني أتصور أن هذه الجدّة المستمرة أبعث على الدهشة وأكثر إثارة للعجب، عندما نقف عليها من خلال التعابير القرآنية عن حقائق وظواهر كونية، تتفاوت مدارك الناس في رصدها واستيعابها، إذ يكون فيهم الجاهل الذي لا يدرك منها إلا ظاهر ما يرى، ويكون فيهم المثقف الذي يضيف إدراكه إلى ذلك الظاهر المرئي بعض خفاياه العلمية، ثم قد يأتي في أعقاب هذا وذاك من قد خولته معارفه أن يضيف إليهما معلومات معمقة لا يتبينها إلا أصحاب الاختصاص أو الذين ساعدتهم عصورهم العلمية على معرفة هذا المزيد.

وتنظر إلى حديث القرآن عن هذه الظواهر الكونية، فتجده يعبر عنها بألفاظ دقيقة وبأسلوب متميز، بحيث يدرك الجاهل من حديث القرآن عنها ما يتطابق مع الظاهر المرئي الذي وقفت عنده مداركه؛ ويدرك المثقف من الحديث ذاته بالإضافة إلى ما فهمه الأول، ما يتطابق مع بعض تلك الخفايا العلمية التي علمها؛ ويرى العالم المتخصص الذي جاء في العصور التالية في الحديث ذاته، بالإضافة إلى دلالته على المعنى السطحي الأول، والمعنى الخفي الثاني، دلالة واضحة على عمق علمي لا يدركه إلا أصحاب الغوص والاختصاص.

هذا مع العلم بأن دلالة الصيغة القرآنية على هذه الطبقات أو الدرجات الثلاث تأتي واضحة متساوقة، دون أي تمحل أو تكلف مما قد يطيب لبعض الناس فعله، عندما يتمحلون في تحميل بعض الجمل أو الألفاظ ما لا تحمله من المعاني.

انظروا إلى قول الله عز وجل: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ ٱلْمَاهِدُونَ﴾(الذاريات:٤٨). إن الأعرابي عندما سمع هذا الكلام الربّاني في صدر الإسلام، لم يشكّ أنه وصف لواقع مرئي مشاهد من صفة الأرض ذات الامتداد المرئي لكل ذي عينين، وهو امتداد ييسر للناس الذين يتحركون على ظهرها أن يمارسوا بسهولة ويسر أسباب معايشهم. أما العلماء المدققون والمتخصصون الذين جاؤوا فيما بعد، فلم يشكّوا عندما سمعوا هذا الكلام الدقيق، أن الحديث إنما هو عن الأرض كلها، أي بمعناها الكلي، أي فالامتداد وصف لسائر أجزائها السطحية. فإن سرت مع امتداد الأرض إلى أقصى الشرق، لن تجد لهذا الامتداد أي حافّة أو نهاية، وإن سرت مع امتدادها إلى أقصى الغرب، رأيت الأمر كذلك، وكذلك إن سرت متجهاً إلى الشمال أو الجنوب. وهذا يعني أن الأرض ممتدة في انحناء مستمر إلى أن يتكون لسطحها محيط دائري مكور.

وهذا المعنى ذاته هو الذي ينبثق، بهذا التدرج، من قول الله تعالى ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية:٢٠) وهذا هو قرار القرآن قبل أن ينطق به أو يدركه أحد من الناس.

فانظروا إلى المعنى السطحي الأول، كيف يتممه المعنى الدقيق الثاني، في تناسق وائتلاف، أي دون أن ينسخ الثاني منهما الأول، ليتكون من العبارة التي تحمل المعنيين الخطاب الشبابي المتجدد، كما يقول بديع الزمان، لسائر طبقات الناس في سائر العصور المتوالية.

كلمة «دحا» تأتي في اللغة العربية بمعنى عظّم، وبمعنى وسّع، وبمعنى كوّر؛ وقد تكررت بمعناها الثاني والثالث في هذه الأبيات لابن الرومي:

إن أَنسَ، لا أنْسَ خبّازاً مررتُ به ... يدحو الرقاقةَ وَشْكَ اللمْحِ بالبصرِ

ما بين رؤيتها في كفّه كُرَةً ... وبين رؤيتها قَوْراءَ كالقمر

إلا بمقدار ما تنداحُ دائرةٌ ... في صفحة الماء يُلْقَى فيه بالحجر

ويقول الله عز وجل ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ (النازعات:٣٠) يقرأ هذا الكلامَ العربيُّ الذي لا يعلم عن الأرض وهيئتها إلا الشكل الذي يراها عليه وهو الاتساع والبسط، فيفهم من قوله «دحاها» هذا المعنى الذي يراه. وهو فهم صحيح يطابق المعنى اللغوي للكلمة. ثم يقرؤها العالم الفلكي أو المثقف العادي في هذا العصر، فيفهم بالإضافة إلى ما تحمله الكلمة من المعنى الأول، ما تدل عليه أيضاً من معنى الاستدارة والتكوير.

وإننا لنلاحظ كيف أن الكلمة تحتضن كِلا المعنيين، على درجتين من السطحية والعمق؛ وكيف أن المعنيين مندرجان في تساوق وتآلف، أي دون أن يقع بينهما أيّ تشاكس أو تعارض. وهكذا فالكلمة ذات جدّة إذ سمعها الأعرابي قبل خمسة عشر قرناً، وهي ذات جدّة أيضا إذ يصغي إليها العالم المتخصص أو المثقف من الناس اليوم.

ولنعرض مزيداً من الأمثلة فنقول: يصف القرآن القمر دائماً بالإنارة، في حين يصف الشمس بالإضاءة أو السراج. فهو يقول مثلاً: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُوراً﴾

(يونس:٥) ويقول: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً﴾ (الفرقان:٦١) ويقول: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾ (نوح: ١٥-١٦).

معاني المنير والمضيء والسراج في القرآن

والجامع المشترك في اللغة بين معنى المنير والمضيء والسراج، هو نقيض الظلمة. ثم إن كلمة المنير تنفصل عن المضيء أو السراج في أن المنير هو ما ينعكس إليه النور من جرم آخر، أما المضيء والسراج فهو كل ما ينبثق منه النورُ حرارةً، أما المنير فلا يطلق إلا على ما ينعكس إليه النور دون أن يبث أي حرارة.

إذن، فحديث القرآن عن كل من الشمس والقمر يحمل معنى ذا ثلاث درجات: سطح قريب يفهمه الناس كلهم، ألا وهو الجامع المشترك الذي هو نقيض الظلمة؛ وعمق يصل إليه المتأملون، ألا وهو التنبيه إلى أن ضياء الشمس مصحوب بحرارة أما نور القمر فخال ومجرد عنها؛ وجذر بعيد يدركه الباحثون المتخصصون أو المثقفون من أهل هذا العصر، ألا وهو أن القمر ينعكس إليه الضياء من جرم آخر هو الشمس، في حين أن ضياء الشمس ينبعث من داخلها.

وهكذا فإن هذه الآيات تفيد كل فئات الناس على اختلاف ثقافاتهم واختلاف عصورهم حسب قدراتهم الفكرية، دون أن يقوم أي تعارض علمي بين حظوظ هذه الفئات فيما يفهمونه من معانيها. إذ هي معان لغوية صحيحة متساوقة ومتدرجة من السطح إلى العمق فالجذور.

حقا إنها شبابية علمية دائمة مستمرة يتّسم بها كتاب الله عز وجل، الذي يمخر أطوار المعارف والعلوم في جدّة تستعصي على التقادم، وهيمنة علمية سامية لا تقهر.

ولكن إياكم أن تتصوروا أننا بهذا الذي أوضحناه نجنح إلى موقف أولئك الذين يحمّلون نصوص القرآن كل ما يروق لهم من النظريات أو التصورات العلمية الرائجة، في تكلف لا موجب له، وبطريقة هي أشبه بالعبث بالقرآن والتلاعب بقانون دلالاته!..

إننا لسنا من هؤلاء العابثين في شيء، ولسنا ممن يدعون إلى إخضاع القرآن لقراءة معاصرة تجعله مرآة دقيقة ينطبع عليها سائر التيارات الفكرية الجانحة والعقائد والتصورات الزائفة والتنبؤات العلمية المتداولة.

إننا نتحدث عن دلالات لغوية ثابتة يحضنها كتاب الله تعالى منذ فجر نزوله، طبقاً لقواعد تفسير النصوص، وقبل أن تتطور المعارف ويسير الناس في طريق اكتشاف الحقائق العلمية المتنوعة.

إن القرآن يقول منذ فجر نزوله ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً﴾ (المرسلات: ٢٥-٢٦). والكِفْت معناه في اللغة الجذب، فمعنى الآية إذن: ألم نجعل الأرض جاذبة لكم إذ تتنقلون على وجهها وأنتم في طور الحياة، وتُدفنون في باطنها إذا حاق بكم الموت. ولقد فسر العلماء الآية بهذا المعنى بسائق من ضرورة الدلالة اللغوية، قبل أن يكتشف الغربيون ما يسمى بجاذبية الأرض، بل إن يونس بن قره هُدِي إلى هذه الجاذبية ووجودها قبل اكتشاف الغربيين لها بآماد طويلة اتباعاً لهذا الذي نطقت به دلالة القرآن.

إننا هنا نتحدث عن المواقف التي يهدي القرآن فيها الناس إلى الحقائق الكونية والعلمية، ولسنا نتحدث عن المواقف التي يستجرُّ فيها القرآن من قبل بعض الناس إلى النظريات والافتراضات العلمية، وشتان بين الموقفين.

كل ما في الأمر أننا نقف مع بديع الزمان رحمه الله أمام هذه الجدّة المستمرة في كتاب الله؛ إذ يخاطب فئات الناس على اختلاف مستوياتهم وعصورهم؛ فلا يحمّل القرآنُ الجاهلَ من الناس من معانيه المتراكمة أكثر مما يطيق، ولا ينجلي على العالم منهم بتلقينه من معانيه تلك كل ما يطيق. وكل ذلك يتم ضمن دلالة لغوية مستقرة ثابتة منذ صدر الإسلام وأول نزول القرآن.

أما من حيث جدة المبادئ والقيم التي يخاطب بها القرآن الناس في كل عصر، دون أن تشيخ أو تتقادم، والتي يركز عليها بديع الزمان ويضرب لها أمثلة عديدة، فهو رحمه الله إنما ينبه من ذلك إلى أمر بالغ الأهمية، وهو أن الإنسان قد يتقدم صُعُداً في مجال المعارف والعلوم، كلما امتدّ به الزمن؛ ذلك لأن أداة المعرفة والعلم هي الفكر والعقل، وحركةُ كل منهما في اجتياز معلوم إلى معلوم آخر أشبه ما تكون بالحركة الآلية التي تقوم على الاندفاع الذاتي؛ أما فيما يتعلق بمجال الأخلاق والمبادئ والقيم، فالشأن في الإنسان كلما امتدّ به الزمن وتعرض لتطورات المعايش واختلاف أسبابها، أن يتراجع في ذلك كله إلى الوراء. ذلك لأن التقدم المادي والازدهار المعاشي من شأنهما أن يزجّا بالإنسان في حالة من الترف والاستكبار

والاعتداد بالقوة والتنكر لموازين الحق.

وهذا هو مصداق قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ (العلق:٦-٧).

تجديد النفس والاحتكام إلى المبادئ

ومن هنا تظل دعوة القرآن الإنسان إلى تحكيم المبادئ والقيم، متمثلة في استخدام القوة لرعاية الحق، وإحلال التعاون محل الاستبداد، تتّسم بالجدّة والشبابية على حدّ تعبير الأستاذ رحمه الله، مهما تطور أو تقادم الزمن.

وهذا هو السبب في حاجة الإنسان الدائمة إلى الانضباط بالدين الحق.

ذلك لأن المجتمع الإنساني مدعوّ بل مضطر إلى أن يجدد نفسه دائماً كي لا يقع في آفة التراجع إلى الاستبداد والطغيان من جراء تألق الحياة المادية وازدهار أسباب المعيشة أمام الإنسان. والسبيل الوحيد إلى تجديد نفسه أن يشدّ نفسه دائماً إلى وصايا القرآن وأوامره وعظاته. وعندئذ يظل المجتمع الإنساني صاعداً في طريقين من التقدم: طريق التقدم في المعارف والعلوم وأسباب المنعة والقوة، وطريق التقدم على سلّم الأخلاق أو القيم الإنسانية الرفيعة التي لا تعرف التفاتاً إلى الوراء ولا تتجه إلاّ صعداً نحو الجدّة وفتوّة المجتمع الإنساني. ■

أيُّ وليدٍ يا تُرى يتحرك في أحشاء الدنيا...؟
وأيُّ مخاضٍ عسير تعانيه...؟
أَهيَ على وشك الولادة...؟
لقد ظلَّتْ تدور وتتأوه، وتستولد الأزمان...
إنها توّاقة إلى زمنِ الإيمان الأول...
إنها تلد حفيداً جديداً هو في الصفاء والنقاء
كجده الأول...!
ذلك الجد العظيم زارع الأرض بحمرة الورود.
تُرى أنحلم مع الأرض بالأجداد...؟
أم الأجداد هم الذين يحلمون بنا...؟

---

*) جامعة دمشق، كلية الشريعة - سوريا.

الهوامش:
١. كليات رسائل النور -الكلمات ص ٤٧١ ترجمة: إحسان قاسم الصالحي.
٢. المصدر نفسه، ص ٤٧١.
٣. المصدر نفسه، ص ٤٧١-٤٧٢.



الحياة الحقيقية قائمة بالعلم وبالعرفان. فمن أهمل التعلّم والتعليم مات وإن كان على قيد الحياة، لأن الغاية الكبرى من خلق الإنسان هي النظر والتأمّل وتحصيل المعرفة وإشعاع ذلك على الآخرين.

وسطية الأمة الإسلامية

د. محمد عمارة *

إن الوسطية الإسلامية تمثل السمة والقسمة التي تجد - بحق- أخص ما يخص به المنهج الإسلامي عن مناهج أخرى لمذاهب وشرائع وفلسفات؛ بها انطبعت الحضارة الإسلامية في كل القيم والمعايير والأصول والمعالم والجزئيات، حتى لنستطيع أن نقول: إن هذه الوسطية، بالنسبة للمنهج الإسلامي وحضارته هي «عدسته اللاّمة» لأشعة ضوئه، وزاوية رؤيته كمنهج، وزاوية الرؤية به أيضاً.

وهي قد بلغت وتبلغ هذا المقام، لأنها -بنفيها الغلو الظالم والتطرف الباطل- إنما تمثل الفطرة الإنسانية قبل أن تعرض لها وتعدوَ عليها عوارض وعاديات الآفات... تمثل الفطرة الإنسانية في بساطتها وبداهتها وعمقها وصدق تعبيرها عن فطرة الله التي فطر الناس عليها. إنها صبغة الله، أراد سبحانه وتعالى لها أن تكون صبغة أمة الإسلام، وأخص خصوصيات منهج الإصلاح بالإسلام، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣). إنها الحق بين باطلَين؛ والعدل بين ظلمَين؛ والاعتدال بين تطرفَين؛ والموقف العادل الجامع لأطراف الحق والعدل والاعتدال، الرافض للغلوّ إفراطا وتفريطا؛ لأن الغلو الذي يتنكّب الوسطية هو انحياز من الغلاة إلى أحد قطبَي الظاهرة، ووقوف عند إحدى كفتي الميزان، يفتقر توسط الوسطية الإسلامية الجامعة وإمكانات الشهادة والشهود.

وهذه الوسطية الإسلامية الجامعة ليست ما يحسبه العامة انعدام الموقف الواضح والمحدد أمام القضايا والمشكلات، لأنها هي الموقف الأصعب الذي لا ينحاز الانحياز السهل إلى أحد القطبين وفقط، فهي بريئة من المعاني «السوقية» التي شاعت عن دلالات مصطلحها بين العوام، وهي كذلك ليست «الوسطية الأرسطية» كما يحسب كثير من المثقفين ودارسي الفلسفة الغربية وطلابها؛ لأن الوسطية الأرسطية التي رأى بها أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) أن الفضيلة هي وسط بين رذيلتين هي في العرف الأرسطي أشبه ما تكون في توسطها «بالنقطة الرياضية» التي تفصلها عن القطبين -الرذيلتين- مسافة متساوية، تضمن لها التوسط والوسطية. إنها نقطة رياضية، وموقف ساكن، وشيء آخر لا علاقة له بالقطبين اللذين يتوسطهما، وليست هكذا الوسطية في اصطلاح الإسلام.

إنها في التصور الإسلامي موقف ثالث حقا، وموقف جديد حقا، ولكن توسطه بين النقيضين المتقابلين لا يعني أنه منبت الصلة بسماتهما وقسماتهما ومكوناتهما. إنه مخالف لهما، لكن ليس في كل شيء؛ وإنما خلافه لهما منحصر في رفض الانحصار والانغلاق على سمات كل قطب من الأقطاب وحدها دون غيرها، منحصر في رفضه الإبصار بعين واحدة، لا ترى إلا قطبا واحداً.. منحصر في رفضه الانحياز المغالي، وغلو الانحياز. ولذلك، فإنها -كموقف ثالث، وجديد- إنما يتمثل تميّزها، ومتمثل جدّتها في أنها تجمع وتؤلف كل ما يمكن جمعه وتأليفه -كنسق غير متنافر ولا ملفق- من السمات والقسمات

والمكونات الموجودة في القطبين النقيضين كليهما. وهي لذلك وسطية «جامعة»، تتميز عن تلك التي قال بها حكيم اليونان.

الوسطية الجامعة

إن «العدل» -والوسطية هي العدل بين ظلمين- لا يعتدل ميزانه بتجاهل كفتيه، والانفراد دونهما، كما أنه لا يعتدل ميزانه بالانحياز إلى إحدى الكفتين. وإنما يعتدل بالوسطية الجامعة التي تجمع الحكم العادل من حقائق ووقائع وحجج وبيّنات الفريقين المختصمين -كفتي الميزان-. ولهذا كان قول رسول الله ﷺ: «الوسط: العدل، جعلناكم أمة وسطا» رواه الإمام أحمد، كان التعبير عن حقيقة مفهوم الوسطية في الإسلام.

وفي ضوء هذا المضمون الإسلامي لمصطلح «الوسطية» -وهو المضمون الذي ميّزها بوصف «الجامعة»- نقرأ كل الآيات القرآنية التي أشارت إلى هذه الخصيصة من خصائص المنهج الإسلامي في الإصلاح. فأمة الإسلام هم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان: ٦٧). والمنهاج الوسطي في الإنفاق تشير إليه آيات من مثل: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ (الإسراء: ٢٦)، ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (الإسراء: ٢٩). فلا الرهبانية النصرانية والنُّسك الأعجمي ولا الحيوانية الشهوانية والتحلل من التكاليف.

وإذا نحن شئنا معرفة الامتياز العظيم الذي تمثله «الوسطية الجامعة» وتحققه للمنهج الإسلامي في الإصلاح، والشمول الذي تبلغه تأثيراتها عندما تُراعى وتوضع في الممارسة والتطبيق، فإننا نستطيع ذلك عندما ندرك كيف مثلت هذه الوسطية -وتمثل- بالنسبة للإصلاح الإسلامي طوق النجاة من تمزق وانشطارية وثنائية المتقابلات المتناقضة، على النحو الذي حدث في حضارات أخرى، وفي الحضارة الغربية على وجه التحديد.

فبهذه الوسطية الجامعة لم يعرف المنهاج الإسلامي التناقض الذي لم يجد له حلاً بين: الروح والجسد، الدنيا والآخرة، الدين والدولة، الذات والموضوع، الفرد والمجموع، الفكر والواقع، المادية والمثالية، المقاصد والوسائل، الثابت والمتغير، القديم والجديد، العقل والنقل، الحق والقوة، الاجتهاد والتقليد، الدين والعلم... إلى آخر الثنائيات، التي عندما افتقد منهج النظر إليها قسمة «الوسطية الجامعة» حدث الانقسام الحاد والشهير في فلسفة الحضارة الغربية إلى «ماديين» و«مثاليين» و«مادية» و«مثالية»، و«عقلانيين» و«لاهوتيين»، و«متدينين»، و«فلاسفة» و«مؤمنين»... منذ العهود اليونانية لتلك الحضارة وحتى نهضتها الحديثة وواقعها المعاصر.

لقد مثلت الوسطية الإسلامية الجامعة لحضارتنا ولمنهاج الإصلاح الإسلامي طوق النجاة من هذه الثنائيات وتمزقاتها وغلوها. ولذلك، كانت المعيار لإسلامية مناهج النظر الفكري ومناهج الإصلاح بالإسلام.

> الوسطية الجامعة، هي منهاج الإسلام في الحياة، بمختلف ميادين الحياة الفردية والاجتماعية؛ فإن العقل المسلم يستطيع أن يفقهها ويطبقها في سائر الميادين.

ولقد تألقت الدعوة الإصلاحية للإمام محمد عبده حول بدايات القرن الرابع عشر الهجري في واقع حضاري تميز بسيادة الجمود والتقليد في دوائر طلاب العلم الديني -وهو غلو يحجب الدين والإصلاح الإسلامي عن الواقع والحياة- فيخلق الفراغ الديني الحق في هذا الواقع، ويبعد المنهاج الإصلاحي الإسلامي عن أن يكون هو سبيل الأمة للنهضة والتقدم.

كما تميز هذا الواقع الحضاري بزحف النموذج الغربي في التقدم والتحديث على الشرق الإسلامي، ذلك النموذج الذي وفد إلى بلادنا في ركاب الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة لعالم الإسلام. وهو نموذج قد تميز بالغلو الشديد، وذلك عندما انحاز إلى عالم الشهادة رافضا عالم الغيب، وإلى الدنيا في مواجهة الدين، وإلى الفردية في مقابلة الجماعة، وإلى الأرض في رفضه لحاكمية السماء وشريعتها، وإلى المادية والوضعية في مقابلة الروح، وإلى القوة

في مواجهة العدل، وإلى الصراع بدلا من التدافع، وإلى العقل في مقابلة النقل والوجدان . . . فملأ هذا النموذج الغربي الفضاء الفلسفي والثقافي والسياسي بحشد غفير من «الثنائيات المتناقضة» التي عبرت وتعبر عن غلو التفريط، المقابل لغلو الإفراط الذي مثله الجمود والتفكير والتقليد السائدَين بين طلاب علوم الدين في شرقنا الإسلامي في ذلك التاريخ.

ولمجافاة كلا الموقفين —جمود طلاب علوم الدين، وجحود طلاب العلوم الغربية— لمنهاج الوسطية الإسلامية في الإصلاح والنهوض، كان حرص الإمام محمد عبده على تميز منهاجه في الإصلاح بسمة الوسطية الإسلامية الجامعة. فكتب عن تميز موقفه ومنهجه ودعوته بهذه الوسطية عن أهل الجمود والتقليد للموروث، وأهل الجمود والتقليد للوافد الغربي فقال: «ولقد خالفتُ في الدعوة إليه (أي إلى منهجه في الإصلاح) رأي الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة: طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو في ناحيتهم». [١]

لقد مثلت الوسطية الإسلامية الجامعة لحضارتنا ولمنهاج الإصلاح الإسلامي طوق النجاة من الثنائيات وتمزقاتها وغلوها.

ثم تحدث عن أن هذه الوسطية التي انحاز إليها وتميز بها منهاجه الإصلاحي ليست خياراً ذاتياً، وإنما هي منهاج الإسلام، الذي تميز به عن الغلو الذي أصاب أهل الشرائع الأخرى، «فلقد ظهر الإسلام، لا روحيا مجرداً، ولا جسديا جامداً، بل إنسانيا وسطا بين ذلك، آخذا من كلا القبيلين بنصيب، فتوافر له من ملازمة الفطرة البشرية ما لم يتوافر لغيره. ولذلك سمى نفسه دين الفطرة وعرف له ذلك خصومه اليوم، وعدّوه المدرسة الأولى التي يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية». [٢]

فالوسطية هي السمة المميزة للإسلام، وهي السبب الذي جعل الإسلام دين الفطرة البشرية السوية، فكان لذلك سلم الارتقاء على درب المدنية، بشهادة الخصوم قبل الأصدقاء.

وبهذه الوسطية التي تميز بها الإسلام تميزت أمة الإسلام عن أمم الشرائع السابقة التي حُرِّف بعضها إلى الغلو المادي، وحُرِّف بعضها الآخر إلى الغلو الروحاني، وبعبارة الإمام محمد عبده: «ذلك أن الناس كانوا قبل ظهور الإسلام على قسمين: قسم تقضي عليه تقاليده المادية المحضة، فلا همّ له إلا الحظوظ الجسدية، كاليهود والمشركين؛ وقسم تحكم عليه تقاليده بالروحانية الخالصة، وترك الدنيا وما فيها من اللذات الجسمانية، كالنصارى والصابئين وطوائف من وثَنيّي الهند أصحاب الرياضات. وأما الأمة الإسلامية فقد جمع الله لها في دينها الحقين؛ حق الروح وحق الجسد، فهي روحانية جسمانية. وإن شئت قلت: إنه أعطاها جميع حقوق الإنسانية، فإن الإنسان جسم وروح، حيوان وملَك، فكأنه قال: جعلناكم أمة وسطا، تعرفون الحقّين وتبلغون الكمالَين». [٣]

ولأن السنة النبوية هي البيان النبوي للبلاغ القرآني، كانت سنة رسول الله ﷺ وطريقته في العمل والقول التجسيد لمنهاج الوسطية الإسلامية. ويكفي أن نتأمل مع سيرته الشريفة قوله ﷺ: «إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق» (رواه الإمام أحمد)، و«إن دين الله عز وجل يسر» (رواه البخاري)، و«إن الله عز وجل لم يبعثني معنِّفا، ولكن بعثني ميسِّراً» (رواه مسلم والإمام أحمد)، وعن عائشة رضي الله عنها: «ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين في الإسلام إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه» (رواه البخاري).

الوسطية منهاج الإسلام

ولأن هذه الوسطية الجامعة بهذا المعنى، هي منهاج الإسلام في الحياة، بمختلف ميادين الحياة الفردية والاجتماعية؛ فإن العقل المسلم يستطيع أن يفقهها ويطبقها في سائر الميادين:

■ فـ«الكرم» وهو خلق وسلوك وسط ليس غريبا تماما عن القطبين النقيضين: «الشحّ» و«الإسراف»، وإنما هو جامع منهما سمات هذا الكرم ومكوناته، جامع لقدر من «التدبير والاقتصاد» ولقدر من «البذل والعطاء»، ففيه اجتماع لعناصر الحق والعدل من القطبين المتناقضين.

■ وكذلك «الشجاعة» نجدها وسطا بين «الجبن» و«التهور»، لكنها جامعة بين مقادير من «حذر» الجبان، ومقادير من «إقدام» المتهور، فلا هي منحازة لأحد النقيضين، ولا هي مغايرة كل المغايرة لهما معا.

■ وفي فلسفة الإسلام في الاقتصاد والثروات والأموال، نجد «الاستخلاف» وسطا بين «الحرية المطلقة» في الأموال، وبين الإلغاء الكامل للحرية في الأموال. فالإنسان مالك وحر ومستثمر ومنفق ومستمتع، لكن كوكيل وخليفة في الملكية الاجتماعية عن المالك الحقيقي وهو الله سبحانه وتعالى. فكل حقوق الإنسان في الثروات والأموال محكومة بحقوق الله وفرائضه في التوازن والتكافل بين الأمة.

■ وفي الموقف من تمايز الناس إلى طبقات اجتماعية، يقف الإسلام بوسطيته الجامعة بين الحرية المطلقة التي تثمر التفاوت الفاحش بين الطبقات، وبين «الطوباوية» التي حلت بمجتمعات لا طبقية. فطبيعي وضروري -بناء على تفاوت الطاقات والهمم والجهود- أن يتمايز الناس في المكاسب والحظوظ، لكن الوسطية تفرض وقوف هذا التمايز عند حدود التوازن والتكافل، الذي يجعل الأمة جسداً واحد، تتكافل أعضاؤه، مع تفاوت الأهمية والعطاء والحاجات لكل عضو من هذه الأعضاء.

وبعبارة الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه في عهده إلى واليه على مصر «الأشتر النخعي»: «واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا غنى ببعضها عن بعض».[٤]

■ وفي الموقف من العلاقات بين الحضارات تقدم الوسطية الإسلامية منهاج «التفاعل» الذي هو وسط بين غلو في «الانغلاق والعزلة»، و«التبعية والتقليد». ففي «التفاعل» استلهام لكل ما هو مشترك إنساني عام، مع التمايز في الخصوصيات المتعلقة بالهويات العقدية والثقافية.

■ كما تقدم الوسطية الإسلامية منهاج «التدافع» عندما يختل التوازن في العلاقات بين الحضارات وكذلك الطبقات، لأن هذا «التدافع» هو متن وسط، يمثل الحراك الاجتماعي الذي يزيل الخلل، ويعيد العلاقات إلى مستوى التوازن والعدل، مع الحفاظ على تعدد وتنوع وتمايز الفرقاء المختلفين. فهو «التدافع» وسط بين «السكون» الذي ينزل الخلل ليستفحل، وبين «الصراع» الذي يصرع فيه القوي الضعيف، فينهي التعددية والتمايز والاختلاف.

لقد رفض القرآن منهاج «الصراع» لأنه يزيل سنة التعددية ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾(الحاقة:٧-٨) بينما «التدافع» حراك يعدل المواقف، مع المحافظة على التعدد والتنوع والاختلاف: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت:٣٤).

تلك هي الوسطية الإسلامية الجامعة، صبغة الله التي أرادها لأمة الإسلام، والفطرة الإسلامية المطهرة من العوارض والآفات، وعدسة الرؤية اللاّمة لقسمات المنهج الإسلامي ومعالم تصوره في «الفكر» و«الحياة». وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾(البقرة:١٤٣). وصدق رسول الله ﷺ عندما قال: «الوسط: العدل، جعلناكم أمة وسطا». ■

> الوسطية الإسلامية الجامعة هي صبغة الله التي أرادها لأمة الإسلام، والفطرة الإسلامية المطهرة من العوارض والآفات، وعدسة الرؤية اللاّمة لقسمات المنهج الإسلامي ومعالم تصوره في الفكر والحياة.

---

*) كاتب ومفكر إسلامي - مصر.

الهوامش

١. الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده؛ ج٢ ص ٣١٠. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. ط. دار الشروق/ القاهرة ١٩٩٣م.
٢. المصدر السابق. ج٣ ص ٢٨٧.
٣. المصدر السابق. ج٤ ص ٣٣٣.
٤. «نهج البلاغة» ص ٣٣٧ خ بشرح الإمام محمد عبده. وتحقيق وتعليق: محمد أحمد عاشور، محمد ابراهيم البنا. طبعة دار الشعب / القاهرة.

فلسفة الموت عند بديع الزمان سعيد النورسي

أ.د. مصطفى بنحمزة*

لقد شغلت الرغبة في تعرف حقيقة الموت أذهان العلماء والفلاسفة منذ القديم، فكانت لهم تصورات عديدة مستملاة من مذاهبهم ومواقفهم الفكرية؛ فكان منهم من تمثل الموت تمثلاً مادياً فلم يَرَ فيه أكثر من توقف للجسم عن أداء وظائفه الفسيولوجية لسبب طبيعي، أو لسبب مفاجئ يختم العمر. وكان منهم آخرون تمثلوه تمثلاً روحيا يتم فيه فك الارتباط بين الروح والجسد ليكون ذلك مرحلة ضرورية للخلوص إلى مرحلة جديدة تتجلى فيها الحياة تجلياً آخر أرقى وأشرف.

لقد رأى بعضهم –ومنهم المعتزلة والطبيعيون– أن الموت إنما هو انطفاء بذرة الحياة الذي يعقب توقف الجسد عن أداء وظائفه الفسيولوجية. والموت على هذا حالة عدم «ينشئها انسحاب الحياة من الجسد». ولكن على النقيض مما ذهب إليه المعتزلة والطبيعيون، فإن أهل السنة قد كونوا لهم مذهباً مستقى من إفادة القرآن وتنصيصه على كون الموت مخلوقاً، أي كونه شيئاً وُجودياً. وتعريفات هذا الفريق تلتقي عند هذا المعطى، ومن تلك التعريفات قولهم: «الموت صفة وجودية خُلقت ضد الحياة»[1]، أو هو «صفة وجودية مُضادةٌ للحياة»[2]، أو «هو كيفية مخلوقة في الحي»[3]، إلى غير ذلك من التعاريف التي تطفح بها كتب العقيدة، وهي تعاريف تشترك في اعتبار الموت وجودياً سواء كانت جوهراً أو عرضاً.

لكن الإشكال رغم هذه التعاريف لا يزول، ويظل العقل ينظر إلى الموت على أنه مجرد عدم ومجرد اضمِحْلال وتوقف، وهذه الأعراض لا يمكن أن تكون أشياء وجودية لأنها نقائض لأعراض أخرى وجودية ماثلة. وهذا ما يفرض تلمّس الجواب في تحليلات أخرى قادرة على تقريب المعنى القرآني للموت بعمق واستبعاد التكلف والتمحل؛ وهو الأمر الذي نجح فيه بديع الزمان سعيد النورسي، وهو يلامس بعبقرية نادرة وبعُمق قليل النظير قضيةَ كون الموت مخلوقاً رغم أن الظاهر يوحي بخلاف ذلك.

النورسي وفلسفة الموت

لقد أوضحت أنه على كثرة ما تناول المتناولون قضية الموت محاولين تصورها ضمن حدود العطاء القرآني، فإن المتتبع لا يجد من كل تلك الآراء شفاء لغليل ولا حلاً لإشكال، وإنما يجد الموضوع منبهماً مظلماً في كثير من جوانبه، وبذلك تظل الحاجة قائمة إلى تحليل جديد.

لقد كان الإشكال قائماً ولا شك في أذهان بعض المشتغلين بمثل هذه القضايا الفكرية، فوَجّه إلى النورسي سؤالاً في الموضوع، فأجاب عنه بجوابه الذي أثبته في مجموعة المكتوبات من كليات رسائل النور[4] وصدَّر الإجابة بإيراد السؤال ونصه: «إنه يفهم من آيات القرآن الحكيم مثل قوله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (الملك:٢) أن الموت أيضاً مخلوق وأنه نعمة كالحياة، مع أن الموت في الظاهر انحلال وعدم وتفسّخ وانطفاء الحياة وهادم اللذات، فكيف يكون الموت مخلوقاً ونعمة؟»[5]

وبهذا السؤال الذي لا أراه صادراً إلا عن فكر مشغول بتعرف وجه الحق من هذا الإشكال، وهو سؤال محدَّد ينصبّ على فكرتين محدَّدتين هما كون الموت نعمة وكونه أمراً وجودياً؛ وهما فكرتان يصعب تمثلهما فضلا عن تقريبهما للغير والدفاع عنهما بقوة إقناعية. فأما عن كون الموت نعمة، فإن ذلك يتجلى في نظر النورسي في مظاهر أربعة:[6]

«**أولها**: الموت إنقاذ للإنسان من أعباء وظائف الحياة الدنيا ومن تكاليف المعيشة المثقلة. وهو باب وصال في الوقت نفسه مع تسعة وتسعين من الأحبة الأعزاء في عالم البرزخ، فهو إذن نعمة عظمى!

ثانيها: إنه خروج من قضبان سجن الدنيا المظلم الضيق

المضطرب، ودخول في رعاية المحبوب الباقي وفي كنف رحمته الواسعة، وهو تنعم بحياة فسيحة خالدة مستنيرة لا يزعجها خوف، ولا يكدّرها حزن ولا همّ.

ثالثها: إن الشيخوخة وأمثالها من الأسباب الداعية لجعل الحياة صعبة ومرهقة، تبيّن مدى كون الموت نعمة تفوق نعمة الحياة. فلو تصورتَ أن أجدادك مع ما هم عليه من أحوال مؤلمة قابعون أمامك حالياً مع والديك اللذين بَلغا أَرذل العمر، لفهمتَ مدى كون الحياة نقمة، والموت نعمة؛ بل يمكن إدراك مدى الرحمة في الموت ومدى الصعوبة في إدامة الحياة أيضاً بالتأمل في تلك الحشرات الجميلة العاشقة للأزاهير اللطيفة، عند اشتداد وطأة البرد القارس في الشتاء عليها.

رابعها: كما أن النوم راحة للإنسان ورحمة، ولا سيما للمبتلين والمرضى والجرحى، كذلك الموت –الذي هو أخو النوم– رحمة ونعمة عظمى للمبتلين ببلايا يائسة قد تدفعهم إلى الانتحار».

أما الشق الثاني من السؤال وهو المتعلق ببيان كون الموت أمراً وجودياً فقد قال عنه النورسي ما نصه: «إن الموت في حقيقته تسريح وإنهاء لوظيفة الحياة الدنيا، وهو تبديل مكان وتحويل وجود، وهو دعوة إلى الحياة الباقية الخالدة ومقدمة لها؛ إذ كما أن مجيء الحياة إلى الدنيا هو بخلق وبتقدير إلهي، كذلك ذهابها من الدنيا هو أيضاً بخلق وتقدير وحكمة وتدبير إلهي؛ لأن موت أبسط الأحياء –وهو النبات– يُظهر لنا نظاماً دقيقاً وإبداعاً للخلق ما هو أعظم من الحياة نفسها وأنظم منها. فموت الأثمار والبذور والحبوب الذي يبدو ظاهراً تفسّخاً وتحللاً هو في الحقيقة عبارة عن عجن لتفاعلات كيمياوية متسلسلة في غاية الانتظام، وامتزاج لمقادير العناصر في غاية الدقة والميزان، وتركيب وتشكّل للذرات بعضها ببعض في غاية الحكمة والبصيرة، بحيث إن هذا الموت الذي لا يرى، وفيه هذا النظام الحكيم والدقة الرائعة، هو الذي يظهر بشكل حياة نامية للسنبل وللنبات الباسق المثمر. وهذا يعني أن موت البذرة هو مبدأ حياة النبات الجديدة، أزهاراً وأثماراً، بل هو بمثابة عين حياته الجديدة؛ فهذا الموت إذن مخلوق منتظم كالحياة.

وكذلك فإن ما يحدث في معدة الإنسان من موت لثمرات حية أو غذاء حيواني، هو في حقيقته بداية ومنشأ لصعود ذلك الغذاء في أجزاء الحياة الإنسانية الراقية. فذلك الموت إذن مخلوق أكثر انتظاماً من حياة تلك الأغذية.

فلئن كان موت النبات –وهو في أدنى طبقات الحياة– مخلوقاً منتظماً بحكمة، فكيف بالموت الذي يصيب الإنسان وهو في أرقى طبقات الحياة؟ فلا شك أن موته هذا سيثمر حياة دائمة في عالم البرزخ، تماماً كالبذرة الموضوعة تحت التراب والتي تصبح بموتها نباتاً رائعاً في الجمال والحكمة في عالم الهواء».

لقد استطاع النورسي من خلال هذا النص أن يغوص بفكره الوقاد وبألمعيته النادرة خلال بواطن الأشياء ليستخلص منها تصوّراً منطقياً تستطيع العقول أن تدركه وتُجاوب معه، وقد اختار أن يشخص وجودية الموت انطلاقاً من مظاهر مادية لا يُخطِئُها النظر.

فالموت في نظر النورسي بداية رحلة جديدة من الحياة تأتي بعد أن يسلم المرء الروح ليبدأ مرحلة حياتية أشرف وأسمى من تلك الحياة المرئية المألوفة.

والموت بهذا هو قنطرة العبور وممر الخلوص إلى الحياة الأشفّ. ومصيرُ الإنسان في هذا أشبه ما يكون بمصير حبة القمح أو النواة التي تُودع الأرضَ وتغمر بالماء فيؤدي ذلك إلى تحولات كميائية غير عشوائية تخضع لقانون صارم في التحول والتغير وهي مع ذلك تتبدى للناظرين مجرد حبة عفنة متفسخة، لكنها سرعان ما تنبثق عن فصيلة تحمل سنابل عديدة في كل سنبلة منها عشرات الحبات.

وهذا التجلي اليانع ليس في الحقيقة إلا حياة جديدة للحبة الواحدة الواهنة المتمزقة في أحشاء الأرض، ولولا ذلك التفسخ والاضمحلال لما وجدت الحبة إلى هذه الحياة الأوفر طريقاً أو سبيلاً. وتفسخها الذي يُرى اضمحلالاً وتحللاً إن هو في واقعه إلا إشراقة جديدة للحياة.

وإذا كان هذا الانتقال يتم بهذه الكيفية وبهذا الانضباط التام لقوانين كميائية صارمة، فمعنى ذلك أن هناك حركة قوية منضبطة

يراها الناس اضمحلالاً وهي عمليات معقدة محكومة بسنة الله في الخلق؛ وحين تصير حبة القمح مئات الحبات، فإنها قد تصير غذاء للإنسان، فتخالط منه الدم والخلايا وتدخل في تركيبه وبنائه وتصير جزءاً من خلايا التفكير ومن الأعصاب فيه، فتنتقل إذن لتحيا مجدّداً في صورة أشرف بكثير من صورتها الأولى. وما كان لها أن تكون كذلك لولا ذلك الاضمحلال الظاهري الذي يُرى في أعين الناس فناءً وعدماً وهو في واقعه وجود جديد وتجلٍّ أبرز من الأول.

إن صورة استعادة الحبة للحياة ليست في واقعها إلا صورة مُقرِّبة لاستعادة الإنسان حياته بعد أن يموت فينتقل إلى وجود ليس الوجود الأول شيئاً بالنسبة إليه، ومفارقته الحياة الدنيا أمر ضروري لِيُستَنْبِل حياة جديدة سالمة من كل منغصات الحياة الأولى.

الموت في نظر النورسي بداية رحلة جديدة من الحياة تأتي بعد أن يسلم المرء الروح ليبدأ مرحلة حياتية أشرف وأسمى من تلك الحياة المرئية المألوفة.



وبهذا التصور البديع الرائع استطاع النورسي أن يبلغ الغاية من تقرير كون الموت أمراً وجودياً ما دام هذا الموت عبارة عن تفاعلات منضبطة منسقة يَنتُج عنها استعادة الإنسان لوجوده مرة أخرى. وهذه التفاعلات ليست ولا شك إلا أمراً وجودياً عبّر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ﴾ (الملك:٢).

إن تحليل النورسي ذو أهمية بالغة بالنسبة لدارسي العقيدة وللمفسرين على حد سواء، وأهميته تكمن في ملاحظ عدة: منها أنه استطاع أن يقرب بجلاء ودون تأويلات بعيدة وجودية الموت، وهذا أمر طالما عسر على كثير ممن تناولوا الموضوع.

وتكمن أهمية التحليل أيضاً في أنه استطاع أن يعطي صورة غيرَ مُرعبة عن الموت، لأن الموت بهذا ليس فناء ولا اضمحلالاً ولا انسحاباً، وإنما هو مجرد تحول ونُقلة إلى الأكمل والأشرف.

وتحليل النورسي ينظر إلى قول أبي العلاء المعري:

خلق الناس للفناء فضَلّتْ أمة يحسبونهم للنفاد

إنما ينقلون من دار أعمال إلى دار شقوة أو رشاد

ولقد كان الخوف من الموت دائماً مرتبطاً بتصوره عدماً وفناء، فمن ثَم كان الإنسان أسير ذلك الخوف، يراه حرباً على الوجود الإنساني وهدماً لكينونته، فيكرهه ويتحاشى أسبابه حتى ولو كانت جهاداً من أجل الحق ودفاعاً عن العقيدة ومواجهة للباطل.

إن فلسفة الموت عند النورسي إعلان عن بقاء الإنسان واستمراره واتصال حياته الأخرى بالأولى، وهي رفض لفلسفة العدم والإلغاء والتشاؤم التي أشاعتها الفلسفات المادية التي حصرت حياة الإنسان في البعد الأول من رحلته، وأَوهَمَته أن الموت نهايته ودماره فتأزم لذلك.

إن تحليل النورسي إلى جانب كل ما سبق مفيد كل الإفادة على أكثر من مستوى؛ فهو مفيد على المستوى العقدي، لأنه ينصبّ على ظاهرة الموت التي هي عتبة اليوم الآخر، وهو جزء من الغيب الذي يؤمن به كل مؤمن.

كما أن تحليل النورسي مفيد على المستوى النفسي، لكونه يكسب المرء اطمئناناً وانسجاماً مع الذات وثقة بالحياة في بعدَيها الأول والثاني؛ كما أنه يهوّن من شأن الموت فلا يجعله ذلك الشبَح المرعب الذي يفني الإنسان ويدمره. ومثل هذا الإحساس لا يكسب الإنسان إلا شجاعة خاصة لمواجهة المشاق واقتحام الصعاب مادام الموت وهو أقصى ما يراد بالإنسان ليس في حقيقته إلا رحلة نحو حياة تقر النفس بها وتطمئن، لأن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون. ■

*) جامعة محمد الأول – المغرب.

الهوامش:

١. التوقيف على مهمات التعاريف لمحمد عبد الرؤوف المناوي (٦٨٣ هـ)، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر؛ مفردات الراغب الاصفهاني، ص ٤٩٧؛ التعريفات للجرجاني، ط حلبية، ص ٢١١.

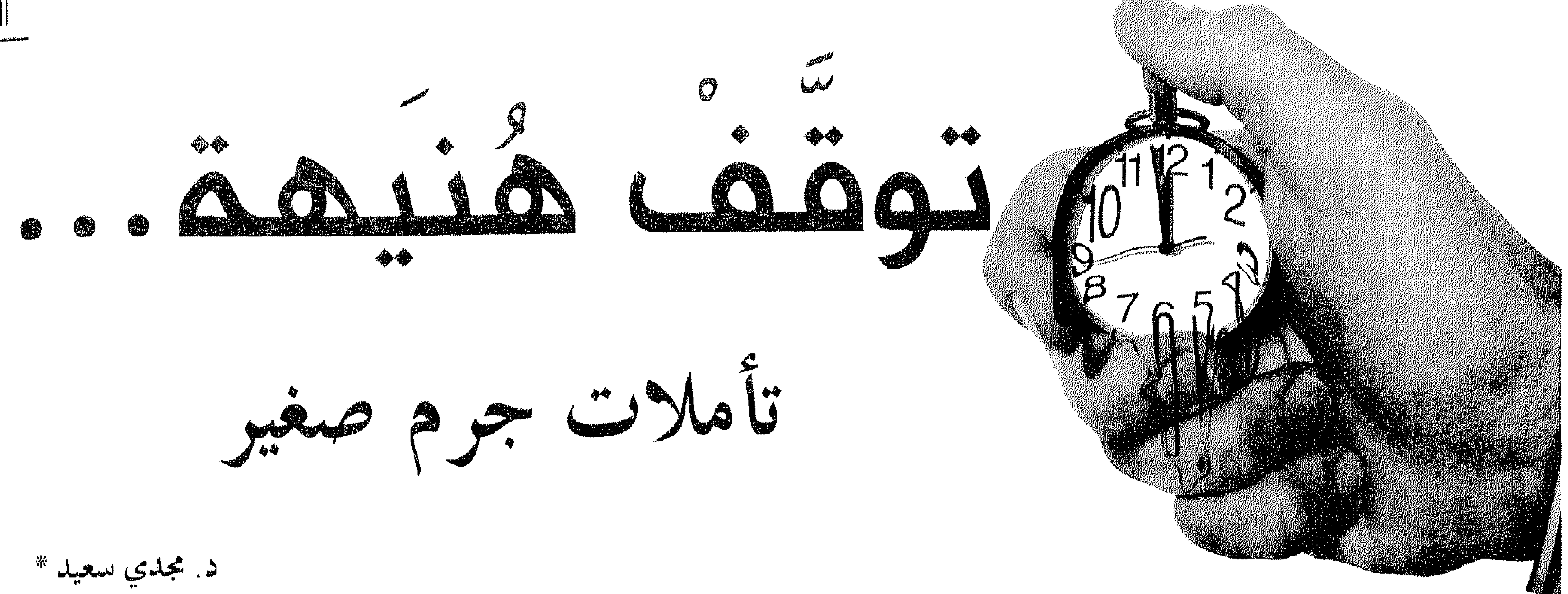
٢. تفسير الفخر الرازي، ٥٥/٣٠؛ مشارق أنوار العقول للشيخ أحمد الخليلي، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، ٨٨/٢.

٣. مشارق أنوار العقول، ٨٨/٢؛ ويقارن بشرح الجوهرة للبيجوري، تخريج: محمد أديب الكيلاني، ص ٣٤٩.

٤. المكتوبات لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان الصالحي، دار سوزلر، إسطنبول ١٩٩٢.

٥. المكتوبات لبديع الزمان سعيد النورسي، ص ٨.

٦. المكتوبات لبديع الزمان سعيد النورسي، ص ٩.



توقَّفْ هُنَيهَة...

تأملات جرم صغير

د. مجدي سعيد *

توقف هنيهة... هذا هو الهاتف الذي خطر على بالي وأنا أَهُمّ بالعودة إلى النوم بعد تقلبات أيام شاقة شابتها مناقشات ومناوشات كلامية وخلوات صاخبات، وما هي في الحقيقة بخلوات.

توقف هنيهة... فبين نوم ويقظة هي في ذاتها أشبه بالنوم، بين هذه وتلك يظل الإنسان، ذلك الجرم الصغير في الفلك البشري مندفعا مسرعا بلا توقف... بلا هدف أو معنى أحيانا كثيرة... مندفعا مسرعا في دورانه حول نفسه. فكل منا بلا شك مهما اقترب من غيره أو اقترب منه غيره يظل جرما وحده... أشبه بصندوق مغلق على ذاته، يدور أولا حول ذاته، بينما هو جزء من مجموعة شمسية... أسرة نووية، ثم مجرة... أسرة ممتدة، فمجرة أكبر... مجتمع أوسع، فمجرة أوسع... قوم... وهكذا.

ما أشبه الأجرام والأفلاك البشرية بالأجرام والأفلاك الكونية في دوران كل جرم حول ذاته... في فلك من أفكاره وهمومه ومشاغله واهتماماته. وكل مجموعة وكل مجرة حول نفسها، وكل جرم يدور حول شمس في مجموعته... أب أو أم أو أخ أو زوجة أو صديق. الكل يدور بسرعة في تلك المدارات... وفي مسارات تطول أو تقصر بين نقطة بداية... صرخة الميلاد، ونقطة النهاية... شهقة الموت.

فإذا كانت الأجرام السماوية قد فطرها الله وخلقها هكذا جمادات بلا عقل... لكنها تعرف ربها... خالقها، فما بال الجرم الإنساني... الذي هو أنا وأنت... ألا نتوقف هنيهة لنفتح عيوننا... لا ليست عيون أبصارنا بل عيون بصائرنا لنعرف... فقط وعلى أقل تقدير إلى أين المسير؟ إلى أين الاندفاع في مداراتنا وفي مساراتنا؟ هل نتوقف هنيهة لنسأل هذا السؤال أم أن قصور الاندفاع الذاتي في مداراتنا، وجاذبية الشموس في مجموعاتنا ومجراتنا تمنعنا من ذلك فنظل في مداراتنا الشخصية أو الأسرية أو المجتمعية أو القومية ندور هكذا بلا معنى أو هدف أو حتى توقف للسؤال عن هذا أو ذاك، ما المعنى... وما الهدف؟ هل أنا في تلك المدارات والمسارات في حالة من اليقظة أم في نوم، مغمض العين... مسوق؟! لا أدري...

تذكرت وأنا في غمرة تلك الخواطر الحديث النبوي «الناس نيام.. فإذا ماتوا انتبهوا»... في غمرة ساهون... في غفلة... في حالة بين النوم واليقظة، ولكن... ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾. ففي كل تلك المدارات والمسارات سواء استيقظ الإنسان أم نام، غفل وسها أم استيقظ وتفتحت مسام جوارح عقله وانتبه... تظل حالة الدوران والسير... رحلة لا تتوقف حتى ينتهي الأجل. والكارثة ألا تحدث يقظة البصيرة وتفتح مسام العقل وتوقف الهنيهة للسؤال قبل نقطة النهاية...

كل منا أدرى بمساراته ومداراته... يحتاج إلى تأملها ومراجعتها، هل هي غائية أم عبثية؟ وأي وجهة يوليها؟ هل يستبق الخيرات أم يستبق الأهواء والشهوات ويتقاتل على التفاهات واللعاعات؟ وأين ومتى تنطفئ شعلة جرمه في نهاية جميع مداراتها ومساراتها؟!

أظن أن الأمر يحتاج إلى التوقف هنيهة وهنيهات للسؤال فهي رحلة لن تتكرر. فكل نقطة يمر بها جرم الإنسان –زمانا على الأقل– لن يمر بها ثانية... فهلاّ توقفنا هنيهة؟ ■

---

*) كاتب وباحث مصري.



مهداة إلى أولئك الفتيان الشجعان،
الآتين من كل مكان،
إلى أرض «داغستان»،
ليقيموا فيها معاهد العلم والعرفان،
ويُعلوا منارات الهدى والإيمان.

هتاف الأرواح

أديب إبراهيم الدباغ *

لو أصغيتم بآذان أرواحكم في سجوّ الليالي وفي هدوات الأسحار، لسمعتم هتاف أربعين صحابيا يرقدون فوق روابي هذه المدينة وهم ينادونكم قائلين:


انتظَرناكم طويلا.. سألنا عنكم الغادين والرائحين من ملائكة السماء: أين فِتيان الإيمان، متى يقدم حمَلة القرآن؟ الشوق إليكم أضنانا.. والحنين للقياكم عذبنا.. وها أنتم اليوم هنا.. فلأرواحنا أن تسعد، ولوَحشتنا أن تأنس، ولغربتنا أن تتأسى بكم في هذا القفر الموحش المجدب من صحاب الإيمان، والممحل من أشقاء الروح والوجدان.

لا نقول لكم أحرقوا كل شيء يغريكم بالعودة من حيث أتيتم كما فعل طارق بن زياد من قبل، ولكنا نقول: أحرقوا وجودكم كله، وأشعلوا النار في أرواحكم، ثم انثروا حبات هذا الوجود المحترق فوق هذه الأرض، فلا تغادروها -إذا غادرتموها- إلا لتعودوا إليها، لأنها صارت جزءً من وجودكم وقطعة عزيزة من كيانكم.

تتساءلون ما هذه النار التي آنستم وجودها في هذا المكان من بعيد، والتي جذبتكم للمجيء إلى هنا. ونحن نقول لكم: إنها قبس من نور عظيم كنا قد حملناه في أفئدتنا إلى هذه الأرض، ولكنها اليوم ذبالة مرتعشة وجلة توشك على الانطفاء إلى الأبد. وإننا لنناشدكم -يا أبناءنا البررة- ألا تدعوا هذه الذبالة تخفت وتنطفئ. انفخوا فيها من أرواحكم، ألقموها قلوبكم، وأطعموها عقولكم لتعود تتأجج من جديد وتنير لهذا الشعب مصابيح الهدى والإيمان.

جئتم إلى هنا مدفوعين بقوة قدرية لا تقاوم، فأنتم مبعوثو القدر وسفراؤه إلى هذه البلاد؛ لقد اجتزتم بوّابة آسيا الكبرى، وفتحتم الطريق لمواكب الإيمان من بعدكم، ولعل حدس أستاذكم النورسي بنهوض آسيا على صوت الإسلام من جديد يوشك أن يصدق. فأنتم هنا هذا الصوت العظيم الذي سيتردد صداه قريبا في عمق أعماق آسيا... فاهتفوا ولا تنوا عن الهتاف ورجّوا الأرض بهتافكم، وهزوا الأبواب الموصدة في وجوهكم، فمن أدام الطرق فُتح له ولو بعد حين.

لا تقولوا ما نحن؟ ومن نحن؟ وأنّى لنا أن نعيد لكلمة التوحيد وهجها فوق هذه الأرض؟ وأنّى لنا أن نعمر أرضا خرابا عملت فيها معاول الهدم والتخريب خمسة وسبعين عاما؟ وكيف لنا أن نبذر بذرة الإيمان في أرض قاحلة جرداء؟ وبماذا نشق الأرض ولا رفش ولا محراث؟ ونحن نقول لكم: إنْ عزّ المحراث فلتكن أظافركم هي المحراث الذي به تحرثون، وإن عز الرفش فلتكن أسنانكم هي الرفش الذي به تحفرون؛ ولأن صوت الحياة القرآنية هي التي تتكلم في دواخلكم، فسوف تصغي إليها حبات التراب وجلاميد الصخور، بل ستصغي إليها الأرض والسماء، وكل الكائنات ستأتيكم طائعة منقادة. ها هي فرصتكم -يا أبناءنا- كي تعلّموا



البشرية كيف يمكن للإيمان والإخلاص أن يأتي بالمعجزات، وتعلّموا العالم أن وجودكم هنا هو الدليل الأقوى على عالمية الإسلام وعمومية القرآن.

لا تستمعوا إلى أولئك المثبطين والمعوقين الثرثارين، وهم يتخافتون متهامسين: أيّ خيال ضبابي يتشبث به هؤلاء؟! وأيّ حلم وردي يُغرقون أنفسهم فيه؟! وأية آمال بعيدة المنال يركضون وراءها؟ !

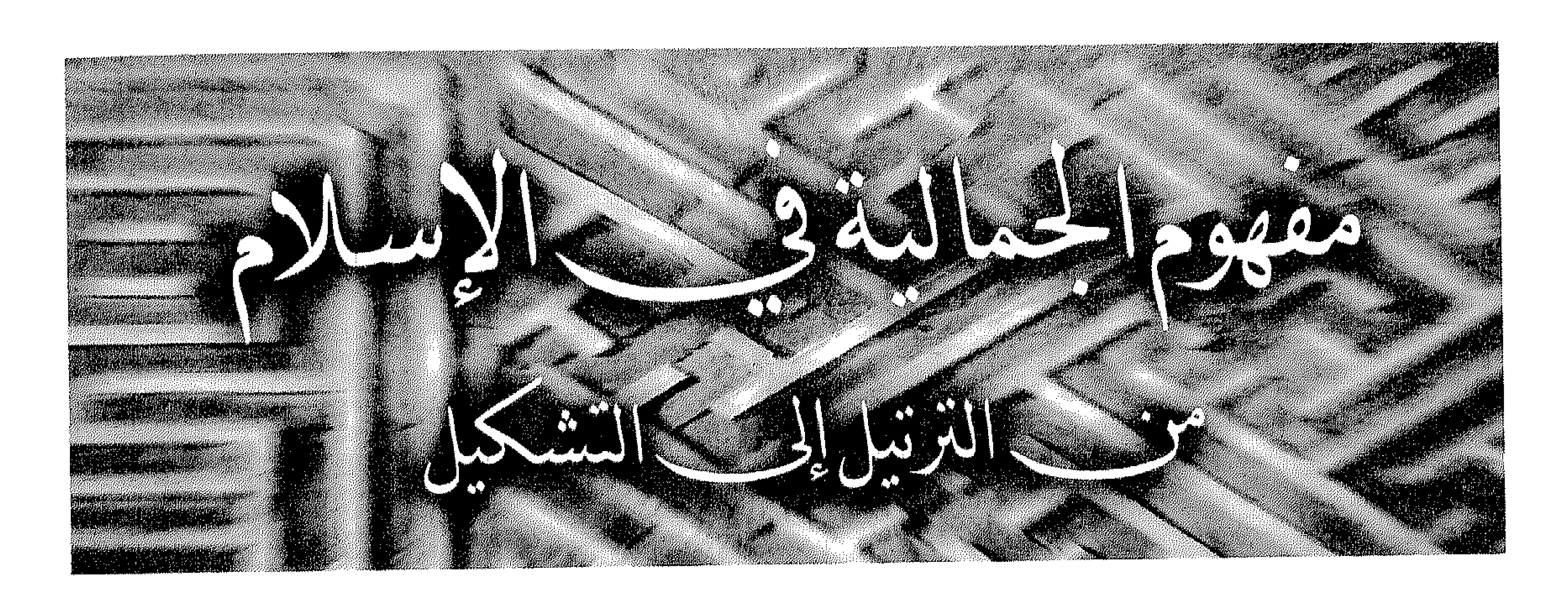
ونحن نقول لكم –يا أبناءنا– ليس الخيال هو ما نخافه عليكم، وإنما نخاف عليكم افتقاركم إلى الخيال.. فما أكثر ما بعثه الخيال من الهمم، وحفز من الأذهان، ودل وأشار إلى خفايا من الحقائق ما زال العقل يدين بها إليه. وجودنا هنا، بل وجودكم أنتم كان حلما من الأحلام، وهو اليوم حقيقة من الحقائق. وما هو خيال اليوم يكاد يكون حقيقة غدا، والأمة التي يعقم خيالها يعقم ذهنها ويتبلد وجدانها.

أحبّوا «داغستان» بكل حبة من قلوبكم، وليكن همكم بها فوق كل همّ، ومحبتها فوق كل محبة. فإذا أحببتموها سهُل عليكم ما تلقونه في سبيلها من متاعب ومشقات، وسهلت عليكم التضحيات.

يقال إن البلبل إذا تعشق وردة وأراد أن يغنّيها حبّه غرز شوكتها في صدره وشرع يغني لها أشجى ألحانه وأعذبها. وأنتم كذلك –يا أبناءنا الأعزاء– دعوا بلابل الإيمان في صدوركم تغني «داغستان» أعذب الألحان رغم ما يوخز صدوركم من أشواكها. فهي وردتكم ووردة آسيا الوسطى التي يهون كل شيء من أجل أن تسمع عنكم وتصغي لكم، وهي ماسة «القفقاس» المتلألئة في تاج جمالها، لكنها تتأبّى عمن يرومها إلا المحبين الذين يشفع لهم عندها إخلاصهم في حبها وهداياهم إليها، وهل من هدية هي أثمن من الإيمان الذي تقدمونه إليها وتُحبُّونها به..؟ ■

---

*) كاتب وأديب – العراق.



أ.د. فريد الأنصاري *

جمال الإنسان

الإنسان جميل، بل هو أجمل مخلوق في الأرض، وتلك حقيقة قرآنية ووجودية؛ ذلك أن مصادر الدين في الإسلام تحدثنا أن الله قد خلق الإنسان في أجمل صورة وأحسنها، وقارن بينه وبين سائر الحيوانات -وهي غاية في الجمال- ظاهرا وباطنا. قال عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ (غافر: ٦٤) وصح عن النبي ﷺ قوله: «خلق الله آدم على صورته»(متفق عليه)، ثم جعل له الكون من كل حواليه جميلا، وحسنه تحسينا، عساه يكون في تدينه حسنا جميلا. قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الكهف: ٧) فالزينة الكونية مبعث وجداني للتحلي بالزينة الإيمانية.

إن الناظر في هذا العالم الكوني الفسيح، يدرك بسرعة أن الإنسان يعيش في فضاء فنّي راق؛ بيئة واسعة بهية هي آية من الجمال الذي لا يبارى؛ بدءاً بالأرض حتى أركان الفضاء، الممتدة بجمالها الزاخر في المجهول، تسير في رونق الغرابة الزاهي، إلى علم الله المحيط بكل شيء. ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ (الحجر: ١٦) وجعل الأرض الحية تتنفس بالجمال نعَماً لا تحصى ولا تنتهي ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الأعراف:٣٢). وأرشد ذوق الإنسان إلى تبين معالم هذا الجمال في كل شيء: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (النحل: ٥-٦).

ثم انظر إلى هذا الجمال المتدفق كالشلال، من الآيات التاليات؛ يقول سبحانه بعد الآية السابقة بقليل، في سياق الْمَنِّ بهذه النعم الجميلة الجليلة: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (النحل: ١٠-١٢).

بانوراما الأرض

إنها صورة كلية شمولية ذات ألوان وأنوار حية متحركة، إنها «بانوراما» كاملة للأرض بتضاريسها وبحارها وأشجارها وأنهارها وأحيائها جميعا. ثم بفضائها الرحب الفسيح بما يملأ ذلك كله من حركة الحياة، والنشاط الإنساني بكل صوره مما أتيح له في هذه الأرض وفضائها من المسخَّرات الحيوية. هذا كله هو قصرك الزاهي أيها الإنسان، ومجالك الواسع، محاطا بكل آيات التسخير وكرامات التدبير، المتدفقة بين يديك بكل ألوان النعم والجمال؛ لتصريف العمر كأعلى ما يكون الذوق، وكأجمل ما تكون الحياة.

وفي سورة الأنعام صور تنبض بجمال الخصب والنماء، جمال أرْضِيّ لا يملك معه من له أدنى ذرة من ذوق سليم إلا أن يخضع لمقام الجمال الأعلى، الجمال الرباني العظيم. قال جل جلاله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا

وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام:٩٩). ويلحق بها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾(فاطر:٢٧-٢٨).

فالصورة تبتدئ -في الآيات الأولى ثم التي بعدها- من لحظة نزول المطر، إلى لحظة خروج النبات والشجر من التربة الندية، إلى مرحلة خروج الحب المتراكب في السنابل، وخروج القِنْوَان، (أي: العراجين والعُذُوق المثقلة بالفاكهة) بجمالها وبهائها، ثم ما يلامسها بعد ذلك من نضج وينع، فتراها -وقد تهيأت للقطاف- متدليةً خلال خمائل الجنات والبساتين، ناظرة إلى الناس في دلال خلاب. والآيات لا تغفل الحركة الحية للألوان، في تطورها من الخضرة إلى سائر ألوان النضج والينع، مما يتاح للخيال أن يتصوره -تَوَرُّداً واصْفِرَاراً واحْمِرَاراً واسْوِدَاداً... إلخ- في الزروع، والتمور، والأعناب، والزيتون، والرمان ونحوها، إلى ما يحيط ذلك كله، أو يتخلله، من ألوان الجبال وجُدَدِهَا، وهي: مسالكها أو خطوطها والتواءاتها المتشكلة منها، وهي غالبا ما تكون ذات انحناءات مختلفة الألوان، كما قال الله تعالى بيض وحمر إلى ما يزينها من غرابيب سود، وهي الصخور الناصعة السواد... إلى حركة اللون المنتشرة هنا وهناك في الحيوان والإنسان، مما لا يملك المؤمن معه إلا أن يكون من الساجدين لمن أفاض على الكون بهذا الجمال كله، الجمال الحي المتجدد. وإنها لآيات تربي الذوق الإنساني على جمالية التوحيد والتفريد، مما تعجز الأقلام والألوان عن تجسيد صورته الحية النابضة، وأي ريشة في الأرض قادرة على رسم الحياة!؟

وإنني لو قصدت إلى استقصاء جماليات القرآن الكريم من السور والآيات لجئت به كله، فهذه عباراته الصريحة وإشاراته اللطيفة كلها، كلها مشعة بتوجيهات ربانية لتربية الذوق الإنساني حتى يكون في مستوى تمثل مقاصد الدين البهية، بتدينه الجميل. فهل عبثا نصَّ القرآنُ على جمالية الكون والنعم والحياة؟ وهل عبثا نبه القرآن الحس البشري الإسلامي، وربَّاه لالتقاط دقائق الحسن والبهاء في مناظر الفضاء والأرض والجبال والشجر والنبات والبحار والأنهار والأنوار والأطيار؟!

إن الله تعالى خلق الحياة على مقاييس الجمال الإلهية الباهرة الساحرة، وأرسل الرسل بالجمال ليتدين الناس على ذلك الوزان وبتلك المقاييس. ولذلك قال النبي محمد ﷺ سيد الأتقياء، وإمام المحبين: «إن الله تعالى جميل يحب الجمال»(رواه مسلم). وفيه زيادة صحيحة: «ويحب معالي الأخلاق ويكره سِفْسافَها»(رواه الطبراني وابن عساكر)؛ مما يشير إلى أن الجمال مطلوب في أداء المسلم شكلا ومضمونا، مبنى ومعنى، رسما ووجدانا.

مواكب الجمال

فليكن الدين إذن سيرا إلى الله في مواكب الجمال ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٢٩-٣٠) وإنها للطافة كريمة أن يجمع الحق سبحانه في مفهوم الدين، من خلال هذه الكلمات النورانية بين جمالين: جمال الدين وجمال الدنيا: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ليكون ذلك كله هو صفة المسلم.

ولقد حرص الرسول ﷺ على تربية صحابته الكرام على كل هذه المعاني. وكيف لا، وهو أول من انبهر بجمال ربه وجلاله؛ فأحبه حتى درجة الخلة. قال عليه الصلاة والسلام لأصحابه يوما: «لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت ابن أبي قحافة [أبا بكر] خليلا، ولكن صاحبكم خليل الله»(رواه مسلم)، وصح ذلك عنه ﷺ في سياق آخر: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله تعالى قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا»(رواه مسلم). وكان يعلمهم كيفية سلوك طريق المحبة بعبارات وإشارات شتى، ما تزال تنبض بالنور إلى يومنا هذا، فانظر إن شئت، إلى قوله ﷺ: «أنتم الغُرُّ الْمُحَجَّلُونَ يوم القيامة من إسباغ الوضوء، فمن استطاع منكم فليطل غرته وتحجيله!»(رواه مسلم) والغرة بياض في ناصية الحصان، والتحجيل بياض في يديه؛ فتلك سيم الجمال في وجوه المحبين وأطرافهم، يوم يردُون على المصطفى ﷺ، وهي سيم «ليست لأحد من الأمم»(متفق عليه)، بها يعرفون في كثرة الخلائق يوم القيامة، كالدر المتناثر في دجنة الفضاء. هذه ومضة الإبراق النبوي تبشر برشح الأنوار على أطراف المتوضئين الساجدين، رشحا لا يذبل وميضه أبدا!

النبي الكريم ميز جمال المحبين وسط الزحام واحدا واحدا.

قال ﷺ: «ما من أمتي من أحد إلا وأنا أعرفه يوم القيامة! قالوا: وكيف تعرفهم يا رسول الله في كثرة الخلائق؟ قال: «أرأيت لو دخلتَ صُبْرَةً [محجرا] فيها خيلٌ دُهْمٌ، بُهْمٌ، وفيها فرَسٌ أغَرٌّ مُحَجَّلٌ، أما كنتَ تعرفه منها؟» قالوا: بلى. قال: «فإن أمتي يومئذ غُرٌّ من السجود، مُحَجَّلون من الوضوء!»(رواه أحمد) فأي تذويق فني هذا للدين؟ وأي ترقية لطيفة للشعور هذه وأي تشويق؟

ولم يفتأ النبي ﷺ يرقي الذوق على مستوى التصرف والسلوك، ليس في مجال المعاملات فحسب، ولكن أيضا في مجال الدعوة والإرشاد. وليس قوله ﷺ: «إن الله تعالى رفيق يحب الرفق ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف»(رواه البخاري) وقوله: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»(متفق عليه) وقوله أيضا في فرض الإحسان على المؤمن في كل تصرفاته وأعماله التعبدية والعادية: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء»(رواه مسلم)، إلا نموذجا لعشرات الأحاديث المنضوية تحت هذا المعنى الكلي الكبير: الإحسان في كل شيء؛ في الشعور والأخلاق والمعاملات والتصرفات والسلوك.

أسس الجمالية في الإسلام

ومن هنا – بعد هذه الشواهد النموذجية والمقارنات التقريبية – يمكن أن نخلص إلى أن أسس «الجمالية» في الإسلام تقوم على أركان ثلاثة، هي: المتعة والحكمة والعبادة. وباجتماعها جميعا في وعي الإنسان ووجدانه يتكامل المفهوم الكلي للجمالية في الإسلام.

١. الحكمة: فأما الحكمة فمعناها –هنا– أنه ما من «جمال» إلا وله هدف وجودي، ووظيفة حيوية، يؤديها بذلك الاعتبار. ذلك أنه ما من جمال في هذا الكون إلا وهو رسالة ناطقة بمعنى معين، هو حكمة وجوده ومغزى جماليته. فليس جميلا لذاته فحسب بل هو جميل لغيره أيضا. فعند التأمل في كل تجليات الجمال في الطبيعة، تجد أنها تؤدي وظائف أخرى هي سر جماليتها؛ من مثل الأهداف التناسلية الضرورية لاستمرار الحياة في الكائنات من الإنسان والحيوان والطيور والنبات... إلخ. ففي هذا السياق تقع استعراضات الجمال الخارق مما وهبه الله للكائن الحي؛ لإنتاج الشعور بالجمالية مما ينتج عنه أروع التعابير اللغوية أو الرمزية، على جميع المستويات البشرية والحيوانية والطبيعية عموما، كل على درجة طبقته الفطرية من الوعي بالحياة والوجود الخِلقي. وما ذلك كله في نهاية المطاف إلا ضربا من قوانين التوازن في الحياة، واستقرار الموجودات والخلائق، تماما كما هو دور قانون الجاذبية في استقرار الحياة الأرضية، وتوازن الأجرام والكواكب في الفضاء. فالإحساس الجمالي– بما فيه من عواطف جياشة لدى الإنسان مثلا – ما هو إلا وسيلة وجودية لاستمراره وتوازنه. قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم:٢٠-٢١).

ونفس الحقيقة الجمالية التي نراها في الطبيعة والجبال والبحار والنجوم... إلخ؛ ما هي –رغم التصريح القرآني بجماليتها في مقاصد الخلق– إلا مخلوقات تؤدي وظائف في سياق التدبير الإلهي للكون؛ خلقاً وتقديراً ورعايةً. ومن ذلك قوله تعالى على سبيل المثال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ (البقرة:١٨٩). وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ (يونس:٥) مشيرا بذلك إلى أن وظيفة الأقمار والأفلاك إنما هي إنتاج مفهوم الزمان؛ لتنظيم الحياة الكونية والإنسانية في أمور المعاش والمعاد معا، أي مجال العادات والعبادات على السواء. وكذلك ما ذكره الله من الوظيفة الجيولوجية والتسخيرية للجبال والأنهار والمسالك، في مثل قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل:١٥-١٦).

فكل المشاهد الجميلة في الحياة والكون –كما عرضها القرآن الكريم– لا تخرج عن هذا القانون الكلي، من حكمة الوجود ووظيفة الخلق.

٢. المتعة والإمتاع: وأما الركن الثاني للجمالية في الإسلام فهو المتعة والإمتاع، سواء في ذلك ما هو على المستوى الحسي أو ما هو على المستوى النفسي والذوقي، أعني العاطفي والوجداني. ومعنى ذلك أن الله جل جلاله خلق في الإنسان مجموعة من الحاجات، كحاجته إلى الطعام والشراب واللباس؛ فكانت منها حاجة التمتع والاستمتاع بالجمال من حيث هو جمال. ومن هنا سعيه الدائم إلى البحث عنه والانجذاب إليه، وهذا صريح في كثير من الآيات والأحاديث النبوية الشريفة. ومن ذلك أن تلك الحقائق الكونية نفسها، التي ذُكرت في سياق هدفها الوجودي، وحكمتها الخَلْقِيَّة، هي عينها ذُكِرَتْ لها

أهداف إمتاعية في مساقات أخرى. قال تعالى مصرحا بفوائد الأنعام والبهائم الإمتاعية (الجمالية)، إلى جانب منافعها التسخيرية: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٥-٨).

فقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ ثم قوله بَعْدُ: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾، دال بوضوح -بما في السياق اللغوي من حروف التخصيص والتعليل- على قصد إشباع الحاجة الجمالية للإنسان، إلى جانب حاجته البيولوجية إلى الطعام والشراب، وسائر حاجاته المعيشية من الخدمات.

وعلى هذا يجرى ما ذكر في القرآن من مشاهد الجمال والتزيين.

٣. العبادة: وأما الركن الثالث فهو العبادة. العبادة بما هي سلوك وجداني جميل، يمارسه الإنسان في حركته الروحية السائرة نحو رب العالمين، الله ذي الجلال والجمال. وهذا من الوضوح بمكان حيث إن النصوص التي ذكرت قبلُ كافية في إثباته وبيانه. ذلك أنه هو الركن الغائي من خلق الجمال نفسه، بل هو غاية الغايات من الخلق كله، وما به من حقائق الزينة والْحُسْنِ المادية والمعنوية على السواء.

إن إشباع الحاجات الجمالية لدى الإنسان لو تأملتها تجدها لا تخرج عن معنى حاجة الإنسان الفطرية إلى التعبد والسلوك الروحي. ولذلك فإن الإنسان الغربي إنما يمارس بإبداعه الجمالي ضربا من العبادة الخفية أو الظاهرة، التي يوجهها نحو الطبيعة حينا، ونحو ذاته أحيانا أخرى. إنه بدل أن يسلك بإنتاجه الجمالي مسلك التعبد لله الواحد الأحد، مصدر الجمال الحق، وغايته المطلقة في الوجود كله؛ ينحرف بها إلى إشباع شهواته أو أهوائه. ثم يمارس نوعا من الوثنية المعنوية أو المادية. ولذلك كانت فنونه الجميلة تميل إلى التجسيم والتشكيل، محكومة بمثل قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (الأعراف:١٤٨).

من هنا إذن أطَّرَ الإسلامُ الجماليةَ بمفهوم العبادة؛ حتى يصحح الاتجاه في مسيرة الإبداع، ويستبصر الفنان بتواضعه التعبدي مصدرَ الجمال الحق؛ فيكون إبداعه على ذلك الوزان، وتتجرد مواجيده لتلك الغاية، وتلك هي جمالية التوحيد، عسى أن يستقيم سير البشرية نحو نبع النور العظيم، النور الذي هو ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(النور:٣٥).

والعبادة في الإسلام سلوك جمالي محض. وذلك بما تبعثه في النفس من أنس وشعور بالاستمتاع. فالسير إلى الله عبر الترتيل والذِّكْرِ والتدبر والتفكر والصلاة والصيام وسائر أنواع العبادات إنما هو سير إليه تعالى في ضوء جمال أسمائه الحسنى بما هو رحمن رحيم مَلِكٌ قدوس سلام . . . إلخ. وليس عبثا أن رسول الله ﷺ كان يصف الصلاة بما يجده فيها من معاني الراحة الروحية، ويقول لبلال رضي الله عنه: «يا بلالُ! أقِمِ الصلاةَ! . . أرِحنا بها!»(رواه أحمد وأبو داود) ومن العجيب حقا أنه عليه الصلاة والسلام ذكر متع الدنيا وجماليتها فجعل منها الصلاة، مع العلم أن الصلاة عمل أخروي لا دنيوي، وذلك قوله الصريح الواضح: «حُبِّبَ إليَّ من الدنيا النساء والطِّيب، وجُعِل قُرَّةُ عَيني في الصلاة»(رواه النسائي) وتوجيه الحديث دال بسياقه على أنه ﷺ أحب من الدنيا جماليات النساء والطِّيب وما يوحي به الأمران من جمال العواطف والمظاهر، ويقول في السياق نفسه: «وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاة» أي كمال سعادتي وجمال لذتي في صلاتي لله الواحد القهار؛ وذلك لما كان يجده ﷺ من أنس وراحة تامين على مستوى الوجدان الآني الدنيوي، بغض النظر عن المآلات الأخروية؛ لأن التعبير صريح في تصنيف الصلاة في هذا السياق ضمن محبوبات الدنيا. وقد أُثِرَ عن غير واحد من السلف والزهاد تعلُّقهم بالدنيا لا من أجل ذاتها ولكن من أجل ما يجدون فيها من لذة العبادة، وجمالية السير إلى الله وهذا من أدق المعاني وألطف الإشارات الوجدانية.

فالجمالية الإسلامية إنما تكتمل بهذه الأركان الثلاثة جميعا: الحكمة والمتعة والعبادة. وعليه؛ فإن السلوك الإسلامي انطلق متحليا بجماليته إلى جميع مناحي الحياة الفنية والإبداعية والثقافية والعمرانية والأخلاقية والاجتماعية. فكانت له في كل ذلك تجليات خاصة تتميز بخصوص المفهوم الإسلامي للجمال. ■

---

*) جامعة السلطان المولى إسماعيل - المغرب.



مليح مرد *

يكشف لنا النور حين يلامس أي شيء عن عالم من الألوان. حينئذ يكتسب أثاثنا الخالي من الحياة معنى جديدا وتسري روح الحياة في الأرفف البنية، والمنضدة الرمادية، والأكواب الخضراء، والبسط والمفارش والستائر؛ حتى حقول القمح التي تكتسي باللون الأصفر وقت الحصاد والجرار الفخارية الزرقاء؛ والملابس التي تستر أجسادنا، والأشجار الخضراء الزاهية التي تحيط بها البنايات وتظللها السماء الزرقاء... كل هذا يصبح أكثر بهاء وحيوية حين تزينه الألوان.

فلنرتحل إذن عبر عالم الألوان الرائع؛ فخلف كل لون قصة، بعضها جميل تستبين العيون الباصرة الحقيقة فيها، بينما ترى عيون أخرى فيها روح الشحناء والبغضاء وكل آفات النفس البشرية. لأجل هذا نستطيع القول إن الألوان تحمل المشاعر المتناقضة، فهي تحمل مشاعر الأمل واليأس، وترمز لمفاهيم الإثم كما ترمز لمفاهيم البراءة، ولذا يساء استخدامها حينا ويُضحَّى بها حينا آخر، يفضَّل بعضها ويزدرى البعض الآخر.

فاللون يُعرَف بأنه ظاهرة من النور أو الإدراك البصري يمكّن المرء من التمييز بين الأشياء التي لولا هذا اللون لكانت متطابقة. ولكونها إحدى الخصائص التي تمكننا من تمييز الأشياء، تعد الألوان معنى من معاني الحياة. وعليه، فإن قلنا إن الحقيقة تتداخل مع الحياة كان لنا أن نقول إنها –أي الحقيقة– تُرى من خلال الألوان المختلفة.

أثر الألوان على الإنسان

ربما يكون ذلك التجاوب النفسي والمبهج الذي تثيره الألوان هو أهم أثر لها في الحياة اليومية وهو ما يعرف بالإدراك النفسي، فضلا عن آثارها في حياة الفن، الموضة، التجارة والانفعالات النفسية والعاطفية.

على سبيل المثال تعتبر الألوان الأحمر والبرتقالي والأصفر والبني ألوانا ساخنة، بينما تعد الألوان الأزرق والأخضر والرمادي ألوانا باردة.

من هنا قيل إن الألوان الأحمر والبرتقالي والأصفر تثير البهجة والشهية وتدفع الإنسان نحو العدوانية، بينما تدعو الألوان الأزرق والأخضر إلى الحس بالأمان والهدوء والسلام. أما الألوان البني والرمادي والأسود فهي تثير الحزن والإحباط والقنوط. وبالرغم من هذا فيمكننا القول بأن هذه المفاهيم ما زالت فردية وتختلف من فرد لآخر.

فالسن والحالة المزاجية والصحة النفسية إضافة إلى عوامل أخرى تؤثر على إدراكنا للألوان. فالأشخاص الذين يشتركون في صفات فردية مميزة غالبا ما يشتركون في إدراكهم للألوان وتفضيلهم لبعضها على بعض. ولنضرب مثلا على هذا بالأشخاص المصابين بانفصام الشخصية (الشيزوفرانيا)؛ حيث يقال إن لديهم إدراكًا غير طبيعي للألوان؛ وكذلك يفضل الأطفال في مرحلة تعلم التمييز بين الألوان اللونين الأحمر أو البرتقالي.

ويؤكد الأطباء النفسيون أن تحليل استخدام المرء للألوان وتجاوبه معها يكشف لنا معلومات نفسية وثيقة الصلة بالتحليل النفسي؛ بل يذهب البعض منهم إلى أن بعض الألوان لها آثار علاجية لبعض الإعاقات النفسية والجسدية.

ففي الصين والهند واليابان تستخدم الألوان في الطب البديل، فيعتبر اللون البرتقالي مفيدا في حالات الاكتئاب،

والأصفر لمرضى السكر، والأخضر للمصابين بالقرحة والخمول الروحي، والأزرق البنفسجي لمرضى الصرع.

ما يهمنا هنا هو العضو الجسدي الذي يستقبل اللون مثل العين ومراكز الإحساس في البشرة.

فطول الموجة الخاصة بكل لون يحمل وينقل الطاقة إلى العضو الجسدي الذي يحوي ذلك اللون، وتقوم تلك الطاقة بإزالة الاضطرابات الجسدية والنفسية.

فالأشعة الملونة تؤثر مباشرة على الجهاز العصبي، لذا تتم معالجة العلل المختلفة بأشعة متنوعة الألوان لتنوع تأثيرها ولتعدد درجاتها.

وعلى الرغم من أن هذه الفوائد الطبية مازالت قيد البحث فإن الألوان تحدث رد فعل جسدي ونفسي محدد وواضح؛ فالغرف والأشياء ذات اللون الأبيض وتلك التي لها ظلال خفيفة لألوان «مبهجة» ربما تبدو أوسع من تلك التي طليت بألوان داكنة أو «دافئة». وكما يعلم المصممون ومهندسو الديكور فإن الألوان الداكنة لها أثر تقليصي؛ فالحجرة المبهجة التي تطلى باللون السماوي تحتاج إلى تثبيت منظم أضواء، أعلى من الحجرة المطلية بلون برتقالي باهت حتى يمكن الحصول فيها على نفس درجة الإحساس بالدفء.

ويعاني الأفراد الذين يتعرضون لألوان غير عادية منبعثة من مصادر خاصة من صداع واضطرابات عصبية؛ بل إن الأطعمة التي يتم تقديمها في هذا الجو ربما تصيب الانسان بالتقزز والمرض.

وعلى النقيض نجد ألوانا أخرى تدعو إلى البهجة؛ فحينما يتعرض المرء للون مبهج بعد تعرضه للون آخر داكن يزداد لديه الشعور بالسعادة بدرجة أعلى مما لو كان قد تعرض مباشرة للون مبهج فقط، ويعرف هذا الأمر بتطوير التباين المؤثر.

كيف يرى الناس الألوان

بعض اللغات لا تحوي كلمات منفصلة تعبر عن الألوان الأخضر والأزرق والأصفر والبرتقالي؛ بينما يستخدم الإسكيمو ١٧ كلمة لوصف اللون الأبيض الذي يصفون من خلاله درجات الثلج المتنوعة. وتُظهِر لنا مقارنة مصطلحات الألوان وجود نماذج خاصة؛ فكل اللغات تحوي أسماء محددة للونين الأبيض والأسود؛ وإذا قمنا بتمييز لون ثالث سنجده الأحمر يتلوه الأصفر أو الأخضر ثم تليها بقية الألوان.

والألوان هبات ومنح ولا يجب أن تكون سببا للتشرذم. يوضح لنا عالم الاجتماع «أورخان كول أوغلو» أن أتباع المذاهب والسياسات المختلفة يختارون ألوانا مختلفة؛ ففي البلقان مثلا يعتبر اللونان الأبيض والأزرق ألوانا يونانية حيث يحوي العلم اليوناني اللونين الأبيض والأزرق. أما اللونان الأحمر والأسود فغالبا ما يرتبطان بالصراع السياسي والاجتماعي؛ فقد ظل الأحمر لعدة سنوات رمزا للعنف والقتل والظلم والإرهاب ومعاداة الديمقراطية. وبتعبير آخر يعني الأحمر وجها مملوءا بالغيظ (أحمر الوجه) أو دمويا (عينان دمويتان).

أما في مجال السياسة فيشير اللون الأحمر إلى الإثارة أو الدفع نحو تغيير اجتماعي سياسي جذري مصحوبا بالقوة كما هو الحال في الثورة الحمراء وأيّ شيء آخر يتصل بالشيوعية مثل المربع الأحمر الخاص بالاتحاد السوفيتي السابق. بل يوجد في العالم جيشان أحمران؛ الجيش السوفيتي الذي أسس عقب ثورة ١٩١٧، والجيش الأحمر الياباني الذي أسس عام ١٩٦٩، وعرف أولهما بقوانينه ونظمه الصارمة مثل معاقبة بعض الكتائب بإرسالها في موجات انتحار جماعية، غير أن مجموعة من القوانين الجديدة سنت عام ١٩٦٠ خففت من حمرة الجيش السوفيتي؛ أما الثاني فهو عبارة عن منظمة إرهابية يابانية صغيرة بقيت ناشطة حتى ١٩٩٠.

أما الألوية الحمراء الإيطالية وهي منظمة إرهابية يسارية متطرفة فقد اختارت اللون الأحمر والعنف، في سعيها لتهيئة إيطاليا في السبعينيات لثورة ماركسية؛ كما اختار الثوريون الصينيون الذين سعوا لإنهاء الثقافة التقليدية الصينية اللون الأحمر والعنف؛ وتابعهم الثوار الكمبوديون الذين يعرفون باسم «الخمير الحمر» والذين قاموا بقتل جيل بأكمله أو ما يقارب المليون ونصف المليون نسمة من السكان البالغ عددهم ٧.٥ مليون نسمة في فترة حكم امتدت لثلاث سنوات ونصف فقط.

أما اللون الأسود فهو يستخدم للإشارة إلى الأمور الثقيلة والخطيرة (مكيدة سوداء)، أو المتسخة والملوثة (أيدي سوداء)، أو المكر والخبث والشر (أفعال سوداء)، أوالأشياء ذات الأثر السلبي (علامة سوداء في سجل المرء)، أو الأمور الغيبية أو الشيطانية (سحر أسود)، أو الأحداث والمشاعر الحزينة واليائسة والمصائب (اليأس الأسود)، أو الجوائح (السبت الأسود)، أو العداوة والغضب والتجهم (الحقد الأسود)، أو الأمور المشوهة

والسخرية الشاذة (الفكاهة السوداء)، أو عمليات الاستخبارات السرية (المهام الحكومية السوداء).

يقول طبيب علم النفس الاجتماعي «إبراهيم بالي أغلو»: «على الرغم من أننا نربط الأسود بمعان سلبية فلا يمكن أن ننكر أنه يمثل الجدية والاحترام والنبل. فهناك مواطن لا يعد فيها اللون الأبيض الذي هو لون الطهر لونا مناسبا. ولابد أن تستخدم الألوان مع درجاتها وتجميعاتها المناسبة.»

ويرى الطبيب نفسه أن من المنطقي ربط الأبيض بالمفاهيم الإيجابية والأسود بالمفاهيم السلبية: «الأبيض والأسود كالليل والنهار، فبينما يثير سواد الليل الذعر في القلوب يشيع ضوء النهار فيها الطمأنينة والسكينة، كما أن عتمة الليل تخفي الألوان بينما يظهر النهار بريقها. والناس بطبيعتهم يميلون لحب الضوء وألوانه الساطعة، كما أننا نستخدم الضوء الأبيض في علاج الاكتئاب. واهتمام المرء بالألوان الداكنة يعطينا مفتاحا لمزاج هذا الشخص، بينما ارتداء المريض لملابس بيضاء يعطينا انطباعا أنه آخذ في التحسن».

ويسجل لنا التاريخ أن جماعات مثل «جماعة اليد السوداء» و «جماعة الأوجه السوداء» و«جماعة الستر السوداء» دأبت على العنف والتخريب. وتعد جماعة الستر السوداء التابعة للزعيم الفاشي موسوليني أهمها على الإطلاق. فبعد طرد هذه الجماعة على إثر انقلاب عام ١٩٤٣ تجنب الناس ارتداء القمصان السود.

أما اللون الأبيض فهو يعني الخلو من الألوان، كما يعني الضوء أو الشحوب (شعر أبيض، شفاه بيضاء، أيْ من الخوف)، كما يعني الخلو الانحراف الأخلاقي، ويحمل معنى بريء أو عفيف (زواج أبيض)، ومعنى غير ضار (كذب أبيض وسحر أبيض)، كما يشير إلى الأشياء السعيدة أو الأثيرة لدى المرء (أيام الحياة البيضاء)، ويعني أيضا المحافظ سياسيا أو الشعب التقليدي الذي يقوم بإجراءات ثورية مضادة (إرهاب أبيض).

وفي مجال الموسيقى يرتبط الأبيض بجودة النغمة الموسيقية المتميزة بنقاوتها وخلوها من التردد والاهتزاز.

أما اللون الأخضر فيحوي معنى الرحمة واللطف والاعتدال (شتاء أخضر–معتدل)، ومعنى الجاذبية والبهجة، ومعنى الشباب والحيوية وعدم النضج أو الاكتمال (تفاح أخضر)، وكذلك معني الجدة. وفي المقابل قد يعني شيئا له مظهر باهت ومريض أو شخص حسود (اخضرّ من الحسد)، كما يشير هذا اللون إلى الحركات السياسية المناصرة للبيئة (السلام الأخضر)، أو الأفراد الذين يعملون من أجل الحفاظ على البيئة (حزب الخضر).

أما الأصفر فهو يرتبط بمواد الفضائح المثيرة والأخبار المزيفة (الصحافة الصفراء)، كما يشير إلى الجبن (شيء من الجبن في شخصية الرجل).

أما اللون الزهري فيعني أن الشخص راديكالي معتدل يحمل رؤى اشتراكية سياسية كانت أو اقتصادية، كما يعني أيضا الإثارة العاطفية (زهري مبهج).

هل للأمم ألوانها الخاصة؟

المناسبة بين الألوان وتفضيل بعضها على بعض وما تمثله بعض الألوان من معان، فضلا عن الجوانب النفسية للألوان، كلها أمور خاصة بكل أمة وتختلف باختلاف الزمان والمكان. فالأمريكان واليابانيون مثلا يحملون نفس المفهوم حول الألوان الساخنة والألوان الباردة. وعلى الرغم من هذا يرى اليابانيون أن الأزرق والأخضر ألوان طيبة والبرتقالي والأحمر الأرجواني ألوان سيئة، في الوقت الذي يرى فيه الأمريكان الألوان الأخضر والأصفر والأحمر ألوانا طيبة ويضعون البرتقالي والأحمر الأرجواني في مصاف الألوان السيئة. وبينما يمثل اللون الأسود لون الحزن في الغرب يستبدل به الأبيض أو الأرجواني أو الذهبي في بعض الثقافات الأخرى.

ويذهب «أورخان قورال» إلى أن المجتمعات تميل لاستخدام

الألوان التي تتسق مع معتقداتها وثقافتها. ففي جزر بانجي الإندونيسية يعتقد المواطنون أن أسلافهم وصلوا إلى المكان في زوارق بُنيّة اللون. ولذا فهم يبنون بيوتهم على هيئة زوارق طليت باللون البني، بل يذهبون إلى حد التضحية بحيوان عجل البحر لتعليق رأسه على المنازل كي يزيدوا في زخرفتها، ويرتدون اللون الأحمر في أثناء الجنائز حيث يشيع هذا اللون في ثقافتهم وتمتلىء الشوارع بالمشيعين الذين يتشحون باللون الأحمر.

أما في منغوليا فيشيع اللون الأخضر حيث يحب السكان الطبيعة والحيوانات، وفي جواتيمالا أجبر المحتل الأسباني كل قبيلة من السكان الأصليين على ارتداء لون معين كي يستطيع تمييزهم. وكأن الناس أحبوا هذا الأمر وقبلوه، فما زال الأمر ساريا حتى اليوم. أما مدينة فارانسي الهندية ونهر الجانج فهما يذكران المرء باللون البرتقالي بينما يذكرك تاج محل باللون الأبيض.

وتقول «نوّال سَويِنْدي» التي عاشت في إيران لفترة: «إن الإيرانيين يرون أن اللون الأسود لون شريف»، وترى «نوال» أن الإيرانيين والغربيين كذلك يرون اللون الأسود رمزا للحداد؛ ويتشح الإيرانيون باللون الأسود لتذكر أئمتهم، بينما يرتدي الغربيون السواد في جنائزهم لتذكر قديسيهم.

وتستطرد سويندي:

«يبدو أن الإيرانيين يرتدون ثياب الحداد على الدوام فكربلاء تعيش داخلهم. أما الأتراك فلا يعدون اللون الأسود لونا حزينا. لذا فهم يرتدون ثيابا عادية أثناء حضور الجنائز لأنهم ينظرون إلى الموت كجزء لا يتجزأ من الحياة.

أما اللون الأحمر فهو عند الإيرانيين لون العار، وأما في تركيا والصين والهند فيعد الأحمر لون الزفاف حيث ترتدي العروس خمارا أحمر على رأسها عشية زفافها وتحيط خصرها بحزام أحمر اللون يوم الزفاف؛ كما تضع المرأة ساعة الولادة أيضا شريطا أحمر اللون كإشارة إلى أنها على عتبة مستقبل جديد مليء بالثراء والغنى.

أما الأفارقة والآسيويون فهم يحبون ارتداء الألوان المتعددة، وأرى أن هذا يرجع إلى طبيعة البلاد التي يقطنونها حيث الطبيعة والجو المشمس الساطع الذي يؤثر على أرديتهم وأمزجتهم.

أما اللون البنفسجي فهو لون الإمبراطورية البيزنطية حيث كان الإمبراطور وحده هو من يرتدي هذا اللون، وحتى بعد موت الإمبراطور بنيت مقبرته من حجارة بنفسجية اللون. وأظهرت حفريات تيومولوس بمدينة «تكيرداغ» في تركيا أن الإسكندر الأكبر كان يرتدي غالبا اللون القرمزي. وربما يكون هذا هو السبب وراء تفضيل أباطرة الدولة البيزنطية هذا اللون بدرجاته المختلفة.

هل للأديان ألوان

يجاب عن هذا السؤال بـ«نعم» و«لا» في الوقت نفسه، فالمسلمون مثلا يفضلون اللون الأخضر حيث تغطى قبورهم وأضرحتهم بأردية خضراء، كما يَشيع اللون ذاته في مساجدهم. ومن المعلوم أنه ليس للإسلام لون خاص؛ وربما يربط بعض الناس بين الإسلام واللون الأخضر حيث كان النبي ﷺ يحب اللون الأخضر، فهو يريح العين ويرتبط بالطبيعة. لكن الحقيقة هي أن النبي ﷺ أمر الناس أن يرتدوا ما صفا لونه وخلا من الدنس وأراح العين.

ونرى القساوسة الأرثوذكس الشرقيين يتشحون بالسواد ويضعون غطاء رأس أسود اللون، بيد أن هذا الأمر ربما ليس له أيّ مغزى ديني، إلا أن رجال الدين والراهبات الكاثوليكيين ربما يفضلون اللون الأسود لبساطته ووقاره.

وبعض الرهبان البروتستانت (مثل اللوثريين-أتباع مارتن لوثر) يرتدون اللون الأبيض أو الرمادي ربما كردّ فعل ضد الكنيسة الكاثوليكية؛ كما ترتدي بعض الجماعات اليهودية المتشددة المعاطف السوداء الطويلة والقبعات السوداء عادة في أثناء المناسبات الدينية أو الأحداث الهامة ليدلوا على أهمية الحدث.

تستخدم الألوان في أغراض شتى تتنوع ما بين الطب والفن والسياسة والأنثربولوجيا. والألوان جزء لا يتجزأ من الحياة، ولا يهمنا كيف تستخدم الألوان، فأفضل استخدام لها نستطيع أن نراه في صنع الخالق العظيم سبحانه. ■

---

*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن الأنكليزية بهاء الدين إبراهيم نعمة الله.

حراء (٢)

أ.د. حسن الأمراني *

وجه أروى

أرى البوسفور يُطلع وجهَ أروى ... يقول: أطلتَ يا أبتي الغيابا

فقلت: بُنيّتي.. هيّا الحقي بي ... هنا الإسلام قد ضرب القبابا

لقد تـرك المدينـة مطمئنـًا ... أبـو أيّوب وامتشق الصعابا

تكنّفه الهدى من كل صوب ... فـردّد كلّ محروم: أصابا

وما رغب المجاهد عن حِماه ... ولمْ يكسبه ترك «الدار» عابا

ولكنْ نـورُ ربي وهْو أبقى ... غـدا يحدو بهمّته الركابا

وقامت بنت ملحانٍ تنادي ... وخلّفت الأسـاور والخضابا

أناساً يركبون البحر خضراً ... ملوك أسـرّةٍ ملكوا الرّقابا

ملاحم لم يشبها ثوب زور ... وكم للحق ثـوب الزور شابا

تحققت البشارة يا حبيبي ... فهذا البحر وطّأ لي الجنابا

فكيف يقيّد الطين انطلاقي؟ ... ويرجو النجمَ من وطئ الترابا

إذا ما راية رفعت لمجدٍ ... غدت بيمين أورخان العُقابا

بغاث الطير تأمن في حماه ... ويـورث كلّ جبّار عِقابا

وأسّس ملك عدل لا يبارى ... وأعلاه اقتدارا لا انتهابا



ألا يا أيّها العلم المفدّى ... ظمئت فلم يك الإثم احتقابا
ترى الفتح المظفر خير كأسٍ ... وطاب الفتح للظامي شرابا
خرجت وريح جعفر خير حاد ... إلى الفردوس، تعتنق الضرابا
وسقت الخيل تطّلب المعالي ... فكان النجم منزلها غلابا
فقل يا حالما بلواء حمد ... يظلّل في القيامة من أنابا
أنا الإيمانُ مثل الشمس يجري ... لغايته وينتظم الهضابا
ويغدو الكوخ قصراً مشمخرّا ... إذا ما النّور للأحشاء جابا
وأرسل طائري نحو المعالي ... فيمسي في دياجيري شهابا
وإن البلبل الموفور عشقاً ... يُخلّف للدياجير الغرابا
ويمنح لحنه للفجر يرجو ... من الورد استماعا لا رضابا
تأمّل: «أن تكون» وليس «تبدو» ... طريقُ هدى لمن فقه الكتابا
تضيق بي البلاد وباصطخابي ... فتغدو السّدرة الغرّا مثابا
﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ لي خيْر زاد ... ونور ﴿بَلَى﴾ غدا عندي شرابا
أدرها يا نديم فما سواها ... أريدُ... بسرّها زدني اقترابا
ورُشّ بها غداً قبري إذا ما ... يدُ الأقْدار قد طوت الكتابا

عندليب الكون

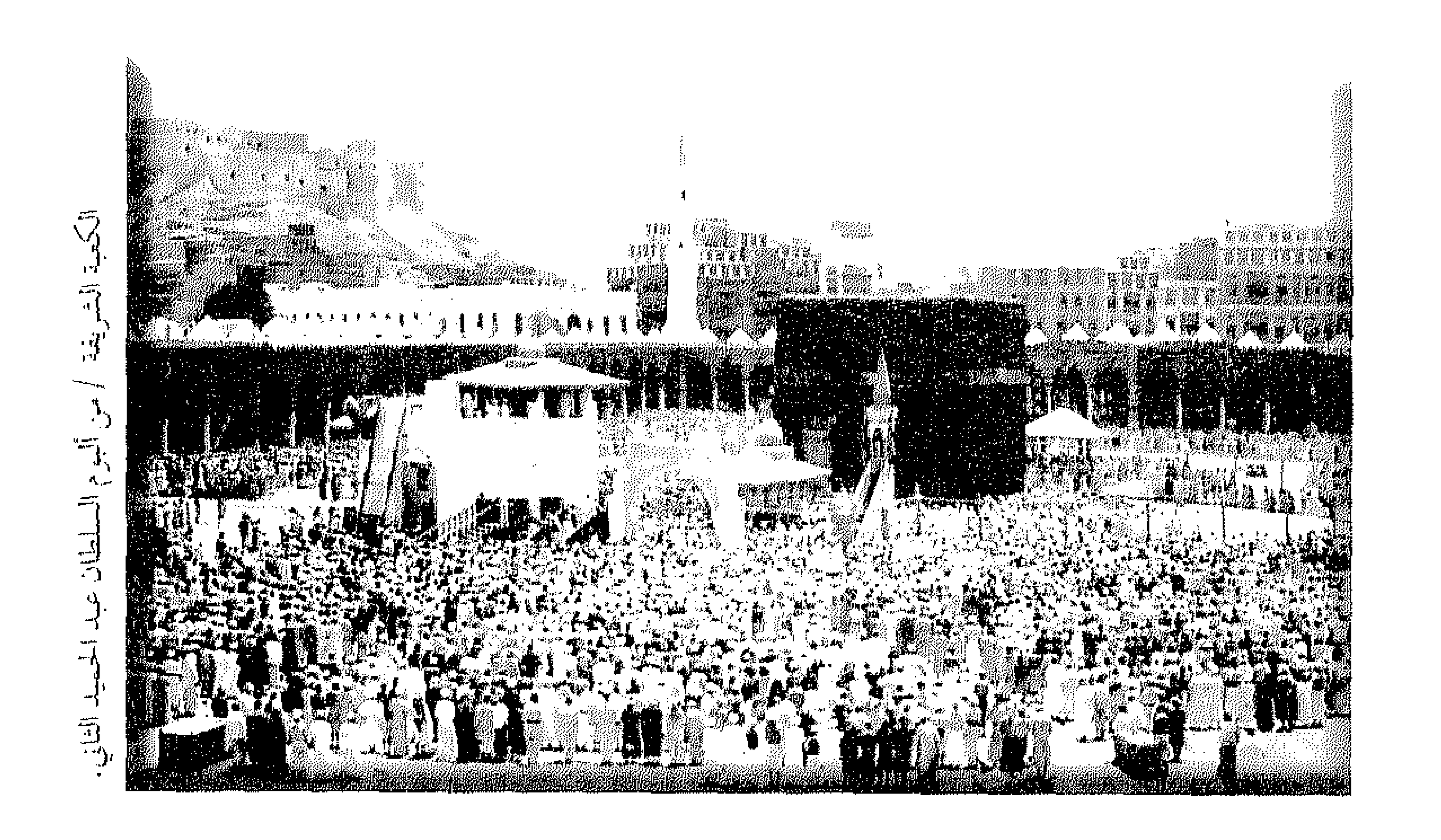
تملّكَ عندليبُ الكوْنِ قلبي ... فأسْكنَ مهجتي مُدُناً رِحابا
أليس معلّمَ الأكوان ألقتْ ... إليه الأمر لله احتسابا؟
ومن غير المعلّم يرتجي من ... يسوق لساحه النّجُب العرابا
وعلّمني المحبّة والتصافي ... وبصّرني بها العجَب العُجابا
على دين الحبيب يكون موتي ... وما الصبّ الحزين كمن تصابى
لقد شرُف الرّقيم بساكنيه ... وأعلى ذكرُ قطْميرَ الكلابا
أحلّ العشقُ منزلةً هواه ... رجاها بعْضُ من لبس الثيابا
فكيف وفي «حراء» قد تجلّى؟ ... وكيف ومن «حراءَ» همَى شهابا؟
أنا قطمير من قدمي حبيبي ... أقبّل عند حضرته الترابا
ولو أني وقفت العمر مدحا ... لما أفرغت من مدحي الوطابا
لقد عَرضتْ فقال: إليك عنّي ... ولا آلوك بعدا واجتنابا
وقد كشف الغطاء له عيانا ... وشاهد عالم الغيب اصطحابا
فما ازداد الفؤاد به يقينا ... إذ ازدان الكمال به اختضابا
يهيج ليَ البكاءَ الذكْر حتّى ... جميل الصبر في الأحشاء غابا
تضعضع مركبي المسكين وجدا ... فموج البحر يوسعني عتابا
وقال العاشق المجْنونُ قولا ... وعاه الكون فانشعب انشعابا:
«محمّد ارتقى فأتى محلاً ... غدا للسدرة الغراء بابا
ألا قسماً لَوْ أنّي يا إلهي ... أتيته ما رضيت به إيابا»
صعدت إلى الجبال فطاش عقلي ... فكيف وأحمدُ اخترق الحجابا؟
وكيف وقد دنا حتّى تدلى ... فصار من الحبيب الفرْد قابا؟ ■

---

*) رئيس تحرير مجلة المشكاة – المغرب.

إستانبول: ٣١ يوليو ٢٠٠٥ / ٢٥ جمادى الآخرة ١٤٢٦





الكعبة الشريفة / من ألبوم السلطان عبد الحميد الثاني

قوافل الحج في العصر العثماني

أ.د. الصفصافي أحمد القطوري *

لقد كانت السمة الدينية من أهم السمات التي اتسمت بها تشريعات الدولة العثمانية؛ فقد كان للهيئة الإسلامية وضع معترف به، وكان يطلق على رئيسها لقب المفتي أو مفتي إستانبول، ثم تَغير هذا اللقب إلى «شيخ الإسلام» الذي كان يشرف على الهيئات القضائية والهيئات ذات الطابع والنشاط الديني. وكان السلاطين أنفسهم حريصين على تدعيم سلطته، فقد كان شيخ الإسلام يصدر فتوى تجيز الحرب، دفاعا، أو هجوما، وعقد الصلح، وغير ذلك من الأحداث الجسام.

وقد كان من مظاهر اهتمام الدولة العثمانية بالدين والعالم الإسلامي اهتمامها بمنصب نقيب الأشراف.

الحجاز في العهد العثماني

كما كان الاهتمام الكبير بالحجاز من السمات التي حافظ عليها كل السلاطين العثمانيين؛ فقد كان الحجاز وما يحويه من أماكن إسلامية مقدسة تابعا للدولة العثمانية، مما أضفى عليه مركزا دينيا مرموقا في جميع أرجاء العالم الإسلامي. وقد أعفت الدولة العثمانية منطقة الحجاز من أداء الضرائب، بل أقر لها سليم الأول ثلث ما كان يجبى من مصر. كما أوقف خراج اليونان عند فتحه على الحرمين الشريفين. ولم يكن الاهتمام وقفا على الأماكن، بل تعدّاها إلى المواطن، فقد أُعفِي سكان الحجاز من التجنيد، وأبقت الدولة على الحكم الذاتي المتمثل في نظام الشرافة؛ وكل ما كانت تفعله أن ترسل فرمانا تحدد فيه إمكانات واختصاصات وواجبات الشريف الجديد عند تعيينه، وتوصيته ببعض الوصايا التي كانت تنصب في أغلبها على حماية الحجاج في أموالهم وأرواحهم، وأن يقسم بالعدل الصرة الهمايونية بين الأهالي، وكذلك المؤن القادمة من مصر، وأن يسعى لبسط الأمن على الطرق. وكان أمير مكة المكرمة يتمتع -في التشريفات- بأسمى مقام في صف الصدر الأعظم في الآستانة والخديوي في مصر وترتب له العطايا من قبل السلطان.

ولكن الشيء الذي أولته الدولة العثمانية جل اهتمامها، هو قوافل الحج والإشراف المباشر والفعلي على الحج، واعتبرت هذا العمل واجبا يقع على عاتقها، باعتباره الركن الخامس من أركان الإسلام، وأن عليها تيسير الحج أمام الراغبين فيه، فأنشأت قوافل الحج، واهتمت بالطرق؛ فأقامت الحصون، وحفرت الآبار على طول طرق الحج، وشجعت على إقامة الخانات، وأقامت المخافر، وكانت تشرف على قوافل الحج الرئيسية التي

كانت تخرج من أنحاء الدولة كافة في مواعيد محددة كل عام، وتضع لها قوة تحرسها، يقودها أحد كبار العسكريين، الذي كان يسمى «سَرْدَارُ الحج». وكان على رأس كل قافلة أمير للحج، وكثيرا ما كان أمير الحج يتولى قيادة الجيش المرافق للقافلة، وخاصة قافلة الحج الشامي.

أهم قوافل الحج

وكانت أهم قوافل الحج في العهد العثماني:

أ. **قافلة الحج الشامي:** وتضم حجاج بلاد الشام والجزيرة وأذربيجان والقوقاز والقرم والأناضول والبلقان، وحجاج إستانبول نفسها، وكان عددها يتراوح ما بين ثلاثين وخمسين ألفا.

وقد كان السلطان العثماني يشرف بنفسه على ترتيب وإعداد هذه القافلة وخروجها من مدينة إستانبول. وكانت القافلة تقطع الطريق التجاري حتى تصل إلى دمشق، ومنها إلى أراضي المؤآبيين القدماء، ومن بلاد معن عبر صحراء مزريب إلى مدائن صالح حتى تصل القافلة إلى المدينة المنورة.

وكان السلطان العثماني يصدر أوامره إلى الولاة لتسهيل مهمة مرور القافلة، وأن يتولوا مهام حراستها حتى تصل إلى حدود الولاية المجاورة، فيتولى الوالي الجديد استقبالها وتأمين مسيرتها عبر ولايته، حتى تصل سالمة إلى نهاية ولايته وهكذا.

وقد كانت القافلة وعلى رأسها أمير الحج تعبر هذه الولايات وسط حفاوة واهتمام بالغ، ويتسلم أمير الحج بصك شرعي أموال الأوقاف والهدايا المرسلة إلى أهالي الحرمين الشريفين، وإلى الحرمين الشريفين ذاتهما، من بسط وتحف ومصابيح وشمعدانات ومواد غذائية وما شابه ذلك.

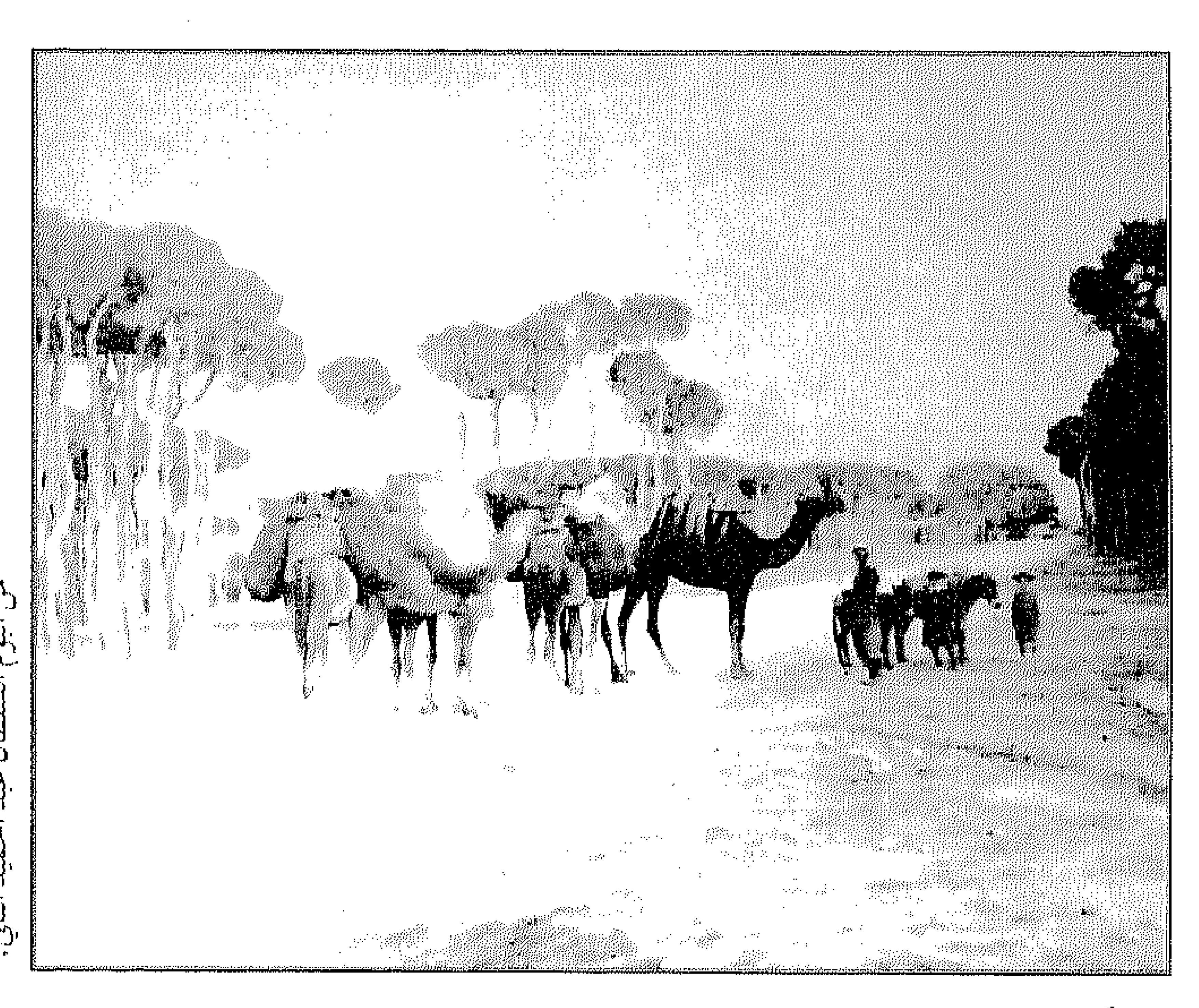
ب. **قافلة الحج المصري:** وتضم حجيج مصر وشمال أفريقيا، وكانت من أهم القوافل خلال العصر العثماني، حيث كانت تضم المحمل المصري وكسوة الكعبة المشرفة الجديدة. وكانت تتحرك من القاهرة خلال الأسبوع الأخير من شوال من كل عام، وسط احتفالات عظيمة تتم تحت إشراف الوالي نفسه. وتقطع المسافة في ٣٧ يوما، سالكة طريق السويس وسيناء والعقبة ثم تلتقي في بعض الطرق مع قوافل الحج الشامي، وفي بعض السنوات كانت تستقل السفن من السويس إلى جدة، أو من الموانيء المصرية الأخرى المواجهة لجدة.

ج. **قافلة الحج العراقي:** وتضم حجاج العراق وفارس، وتسلك الطريق الذي يعبر جزيرة العرب نفسها. وكان كثير من حجاج فارس والخليج العربي واليمن يفضلون طريق البحر والسفن البحرية.

د. **قافلة الحج اليمني:** وتضم حجيج اليمن والهند وماليزيا وأندونيسيا، وينضم إليهم حجاج الحبشة والصومال والأفارقة الذين يصلون إلى مصوع وسواكن وموانيء اليمن.

كانت القوافل تضم عناصر مختلفة؛ ففيها الأمراء، والأثرياء، والتجار ومعهم تجاراتهم، والفقراء والمعدمون. وكان كلٌّ حسب قدرته يرافق القافلة، ففيها الهودج وفيها الجمال والخيول، وفيها الرجالة من البدو والفقراء.

وقد كان الولاة يقومون باستئجار الجمال والخيول لحمل مهمات القافلة، ويتعاقدون على ذلك قبل موسم الحج بوقت كافٍ، ويتفقون على ذلك مع مشايخ الأعراب والبدو الذين يعيشون في المناطق التي تسلكها القوافل.



من ألبوم السلطان عبد الحميد الثاني.

أهم طرق القوافل

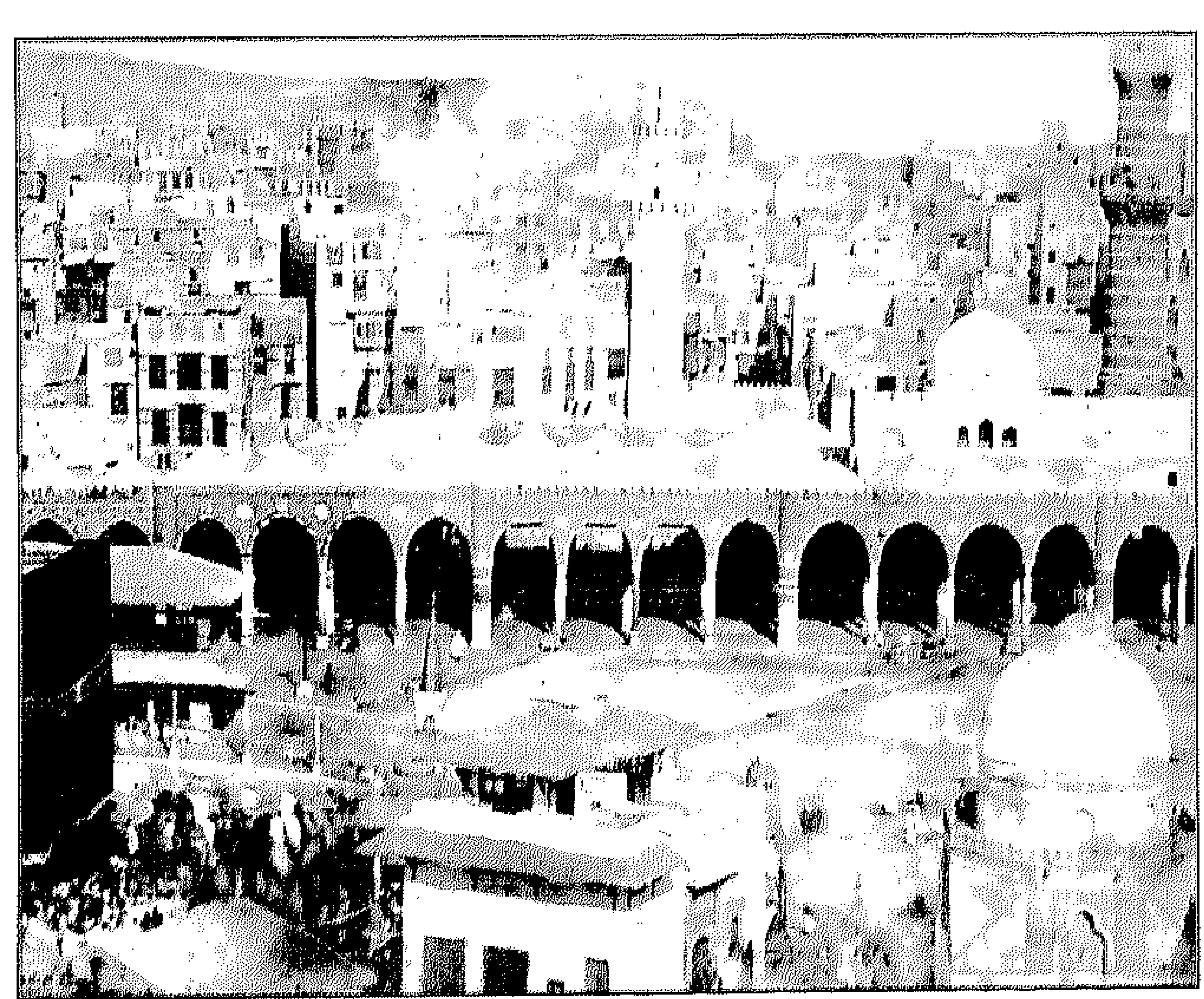
وأهم الطرق التي كانت تسلكها القوافل بين الحرمين الشريفين هي:

١. **الطريق السلطاني:** أي الطريق الرئيسي، وكان على حجاج القافلة التي تسلك هذا الطريق أن يتجمعوا عند وادي فاطمة بالقرب من مكة المكرمة للاتجاه إلى المدينة المنورة. ويتزود الحجاج فيها بما يلزمهم، ثم يتجهون إلى بئر عسفان، وتسلك طريقها حتى تصل إلى رابغ التي تفترق عندها الطرق، وإن كان أكثرها استعمالا هو الطريق السلطاني.

كان الحمّالة هم الذين يحددون أماكن التوقف، وكانوا

يفضلون تلك التي تضم آبارا للتزود بالمياه. وتعودت القوافل أن تدخل المدينة في اليوم السادس من خروجها من رابغ. وهذا الطريق السلطاني كان هو الطريق المعتاد بالنسبة لقوافل الحج وقوافل المحامل. وبالرغم من قلة مياهه فإن مطالعه ومنازله الوعرة كانت شبه معدومة، ولكن كانت تبعد عنه بعض الشيء سلاسل جبلية مكنت بعض عربان البدو من مهاجمة هذه القوافل، مما دفع قوافل الحجاج المسلمين ومواكب التجار إلى أن يسلكوا الطرق المسماة بالطرق الفرعية لعمرانها وعدم خطورتها.

٢. **الطريق الفرعي**: هو الطريق المؤدي من رابغ إلى المدينة المنورة عن طريق «بريدة». والذين يودون السفر عن طريق «الطريق الفرعي» يتجمعون عند «المرحلة»، التي تسمى آنذاك «بئر رضوان»، وهي تبعد مسيرة ثنتي عشرة ساعة من رابغ،



الكعبة الشريفة / من ألبوم السلطان عبد الحميد الثاني

ويتزودون بالمياه والمؤن، ثم يسلكون الطريق مارين بقرية «أبي ضياعة» و«ريان» و«أم العيال» و«مضيق» و«صمد»، ثم تمر القوافل من المنطقة المنخفضة التي تسمى الغدير التي تتجمع فيها مياه الأمطار فتحولها إلى ما يشبه البحيرة.

الطريق الفرعي الثاني المؤدي إلى المدينة المنورة هو طريق غابر، وبالرغم من أن المسافة عبر هذا الطريق كانت تقطع في خمسة أيام من مكة إلى المدينة، فإنه طريق جبلي، كثير المطالع والمنازل، مما جعله صعب المنال بالنسبة للجمال التي غالبا ما تكون محملة بأشياء ثقيلة، وتجعل قطع الطريق مرهقا، كما أن كثرة الجبال تجعله مرتعا لقطاع الطرق والأشقياء، مما يدفع الجمالة إلى الابتعاد عنه وعدم سلوكه، إلا أن قِصَرَه بالنسبة للطريق السلطاني والطريق الفرعي تجعل منه معبرا مطروقا من قبل المشاة، أو من يمتطون صهوة الخيول، أو من قبل فرسان الخيالة والهجانة التابعين لقوة الدولة العثمانية، والمنوط بها حفظ الأمن وحماية مكة المكرمة والمدينة المنورة. وتورد بعض كتب التاريخ أن النبي محمداً ﷺ قد سلك هذا الطريق عند هجرته الميمونة إلى المدينة المنورة.

وهناك أيضا الطريق الشرقي الذي يربط المدينة المنورة ومكة المكرمة، وهو طريق كبير ومتسع إلى حد ما، وكثيرا ما تسلكه القوافل المترددة بين المدينتين المقدستين، وهو الطريق المفضل عند قوافل المحمل، والقوافل التي كانت تحمل الصرة، وخاصة في المواسم التي كانت تشتد فيها الحرارة، وتزداد فيها حملات الخارجين على القانون، وتسلطهم على الطرق الأخرى.

وعرف بهذا الاسم لوقوعه على الطرف الشرقي من بلاد الحجاز، وتصل القوافل التي تقطع هذا الطريق إلى مرحلة بئر الليمون بعد مسيرة أربع عشرة ساعة، ثم بئر برود الذي تفضل القوافل الاستراحة عنده، والتزود من مياهه العذبة. وبعد المرور من بضع آبار ومراحل أخرى تصل القوافل إلى «بركة زبيدة»، وهي البركة التي أمرت السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد بتشييدها لتجمع فيها مياه السيول في هذه المنطقة.

ومن الطرق الفرعية التي تسلكها القوافل بين المدينة المنورة ومكة المكرمة أيضا طريق ينبع البحر. فينبع البحر تعد مرفأ المدينة المنورة. والقوافل المتجهة إلى البلدة الطيبة تصل أولا إلى «بئر سعيد» ثم قرية «صفراء»، وعند هذه القرية يلتقي طريق ينبع البحر مع الطريق السلطاني؛ ومن ينبع حتى طيبة الطيبة خمس مراحل سيرا بقوافل الجمال. والمعروف أن المرحلة هي مسيرة يوم واحد بالجمال، أي مسيرة سبعة وعشرين ميلا. وتمر القوافل التي تسلك هذا الطريق بقرية بدر المباركة، ويقرأون الفاتحة على أرواح شهداء بدر الكبرى، وهذا الطريق سهل ومستوٍ مما يشجع القوافل على عبوره.

أشهر الطرق إلى مكة المكرمة

أما أشهر الطرق المؤدية إلى مكة المكرمة، وكانت تسلكها قوافل الحج القادمة من بلدان العالم الإسلامي فكانت سبعة طرق، وبيانها كالتالي:

١. طريق الشام

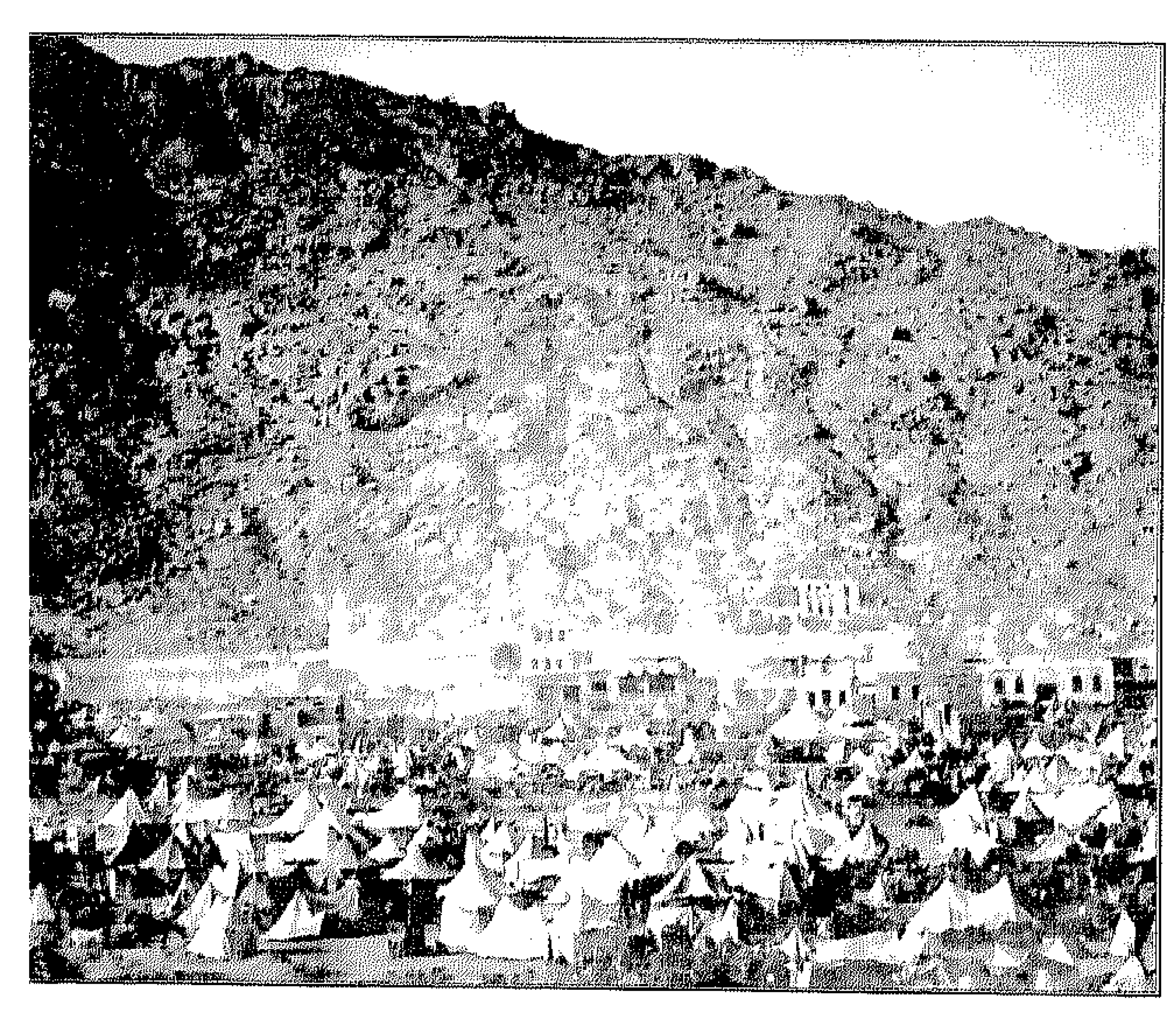
هو الطريق الذي كانت تسلكه قوافل الحج القادمة من الشام وكذلك قافلة محمل الشام. وكانت قافلة الشام تتحرك في أغلب المواسم في الخامس عشر من شوال تحت رئاسة أمير الحج، وكان يتولاها في العادة والي سوريا. وقبل التحرك يجري احتفال كبير ينظمه قائد الجيش الخامس، وبعد القيام بالتشريفات المعهودة في مثل هذه الأمور تخرج القافلة من الشام من «قبة الحاج»، التي كانت تعد نقطة البدء للقافلة، ومنها إلى الكسوة حيث ينضم إليها الحجاج الذين تجمعوا في «مزريب»، ثم تتجه مجتمعة إلى المراحل التالية.

ومن المناطق التي تمر بها القافلة عبر هذا الطريق منتزه مزريب في حوران، وبجوار عين مزريب أمر السلطان سليم الأول ببناء قلعة -مازالت أطلالها باقية حتى الآن- لحماية قافلة الحج، ثم الزرقاء فالبلقاء، ثم القطرنة حيث القلعة التي شيدها سليمان القانوني بجوار البركة التي أمر بإعادة تطهيرها بعد أن كانت قد تساوت مع الأرض. ومن القطرنة تتابع القافلة سيرها حتى الكرك، ثم عنيزة، فقلعة معان. وهذه المنطقة تسجل كتب التاريخ أنها كانت مقر إقامة بني أمية، وأمر السلطان سليمان القانوني بإقامة قلعة وحفر بئر فيها. ومن معان إلى ظهر العقبة نحو «ذات الحج»، وفي ذات الحج أو حجر هذه أمر القانوني بإقامة قلعة لحماية القوافل من غارات البدو والأعراب، وتشتهر بتمورها وثمارها الجيدة. ومنها إلى «قاع البسيط» فتبوك ثم أخيضر التي تقع في منتصف المسافة بين مكة والشام.

وقد كلف السلطان سليمان القانوني عند جلوسه على العرش سنة ٩٢٦هـ - ١٥٢٠م واليه على الشام مصطفى باشا ببناء قلعة أخيضر، وبعدها تصل القوافل إلى بركة المعظم، ثم جبل الطاق الذي عقرت فيه ناقة النبي صالح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام. ثم مبرك الناقة، ثم قرى صالح، ثم ديار ثمود، وهي تلك المنازل التي نحتت في الجبال، وفيها مسجد النبي صالح عليه السلام، ومنها إلى العلا التي تبعد عن المدينة المنورة بست مراحل، وهي من ملحقات المدينة المنورة؛ وأمر السلطان القانوني بتجديد قلعتها وحصنها لحمايتها من غارات الأعراب. ومنها إلى شعب النعام ومنزل فحلتين، ثم وادي القرى الذي تكثر فيه المياه والغابات، وأبيار علي رضى الله عنه، وفيها يحرم الحجيج جميعًا. ومنها تمر القوافل بقبور الشهداء، ثم الجديدة وقاع البرو وبلاد طارق وعقبة السويق؛ ومنها إلى عسفان حيث الآبار النبوية المأثورة، وبعدها تدخل القوافل إلى مكة المكرمة في أوائل ذي الحجة من كل عام، بعد أن تكون قد قطعت المسافة من المدينة في مائة وست ساعات.

٢. طريق مصر

وقد جرت العادة منذ القدم أن يصحب أمير الحج المصري المحمل وسط احتفال كبير من القاهرة متجها إلى بركة الحاج. وهناك يلتقي بجموع قافلة الحج المصرية، حيث يتجهون سويا إلى هدف البويب، ثم يتجه الموكب بعد ذلك إلى الحمرا، حيث أقامت السلطات المعنية آنذاك عدة أبنية وسقاية ماء ليتزود منها الحجاج؛ ومنها إلى بركة عجرود التي تقع تجاه السويس وتسمى أيضا «عيون موسى»، وكان بها خان كبير منذ زمن قانصوه



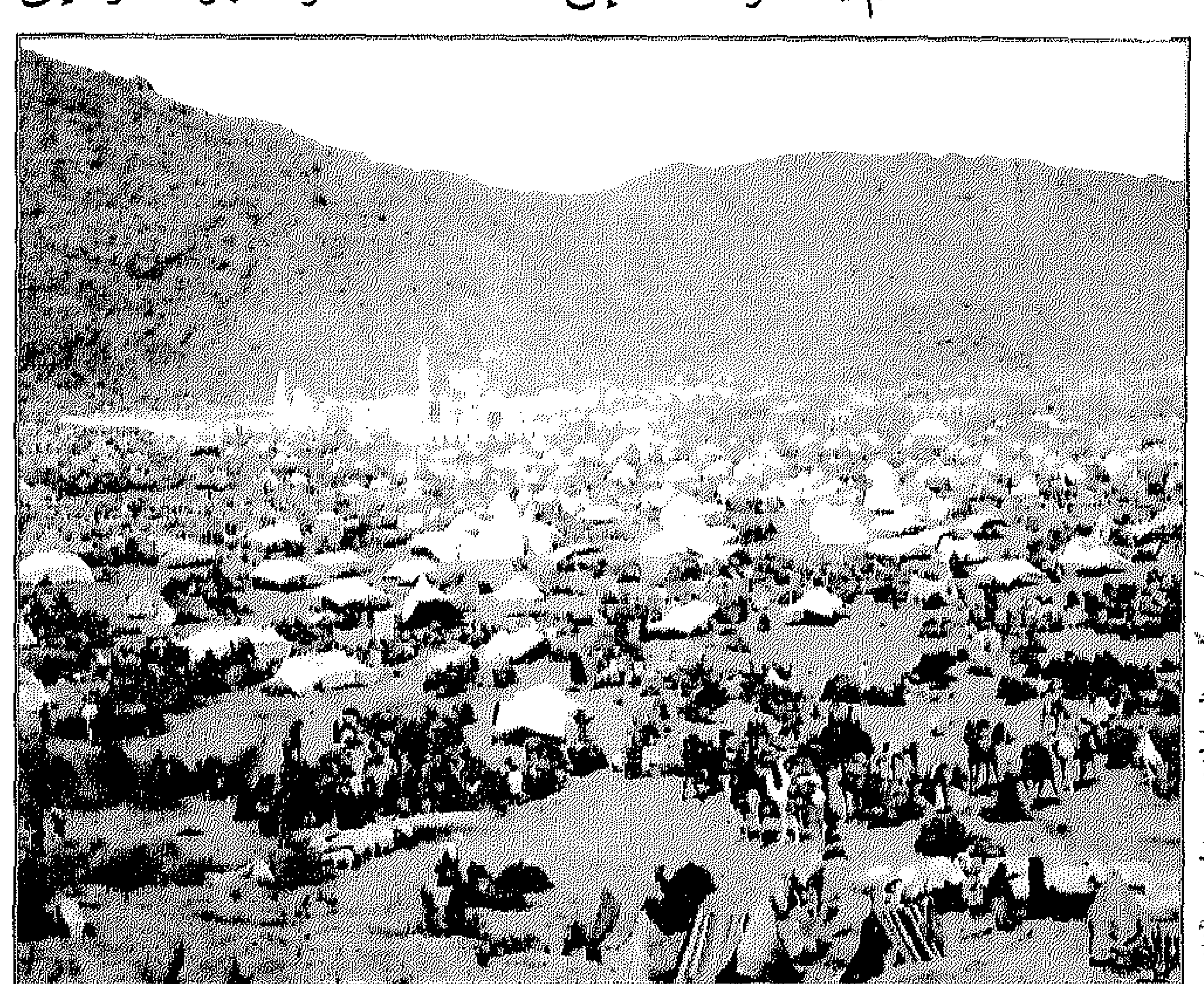
الغوري. ثم تتحرك القافلة إلى منصرف، وفيها بعض المنخفضات التي يظن أن ملوكا سابقين قد حفروها في العصور الغابرة للربط بين البحرين الأبيض والأحمر، وهي التي حفرت مكانها قناة السويس. ومنها إلى قبيبات، ثم أول التيه حيث على الجانب الأيمن جبل الطور والجانب الأيسر جبل العريش. وفي وادي النعمان قام والي مصر علي باشا بتوسيع الحصن والسقاية لخدمة الحجاج، ويقوم الحراس بملء حوض الفسقية قبل وصول الحجاج، وبعدها تتابع القافلة سيرها حتى مغارة شعيب وعيون القصب وشرم ومويلحة، وفيها دار قايتباي، ثم بطن كبريت فأزلم فالوجه فجبل الزيت حتى ينبع، وتستمر القوافل من العقبة حتى رابغ، ثم تواصل سيرها في الطريق المعروف حتى مكة.

٣. طريق عدن

تخرج القافلة وسط احتفال مشهود من لحج إلى يكرد، ثم تعز، ثم وادي الحسنا، ثم تنزل القوافل إلى «حيس». وكان المحمل اليمني يخرج من عدن عندما كانت تحت الإدارة العثمانية، ومنذ سنة ٩٦٣هـ بدأ الوزير مصطفى باشا والي اليمن في تنظيم موكب المحمل الشريف باسم محمل صنعاء اليمن على إثر صدور فرمان له بهذا الصدد.

يتحرك الموكب من حيس إلى زبيد فرفع، ومنها إلى بيت العقبة الصغير، ومنها إلى قطيع، ثم المنصورية، ثم يتابع الموكب سيره في الطريق المعهود.

أما حجاج شحر فإنهم يتجهون إلى حضرموت برا، ثم إلى صنعاء، ثم ينضمون هناك إلى قافلة صنعاء، ويتجهون سوياً إلى



«منى» / من ألبوم السلطان عبد الحميد الثاني

مكة المكرمة، ومن شَحر إلى حضر موت خمسة منازل، ومنها إلى صنعاء أربعة منازل. وعلى حجاج ظفار الذين يودون الاتجاه إلى صنعاء براً أن يقطعوا خمس عشرة مرحلة سيرا، ثم ينضمون إلى جموع الحجيج التي احتشدت هناك لمواصلة السير سويا.

٤. طريق عمان

يمثل طريق عمان الطريق الرابع بين الطرق التي تسلكها قوافل الحج الإسلامية. ويتجه حجاج عمان بعد أن يخرجوا من حصن المدينة إلى «تروى»، ثم إلى «عجلة»، ومنها إلى «عصوه»، ثم بئر السلاح، وبعد ذلك تشد الرحال نحو مكة. والطريق من الحصن حتى مكة عشرون مرحلة، ولكن لصحراويته وندرة مياهه فإن حجاج عمان يفضلون التوجه والعودة بطريق البحر.

٥. طريق الحسا

وهو الطريق الذي كانت تسلكه جموع حجاج نجد والجزيرة مارين بالدرعية فشعرا ثم مرقب، ومن هناك مرورا ببعض المراحل، حتى ذات عرق حيث مكان إحرام سكان نجد فساحة الكعبة المشرفة.

٦. طريق البصرة

تتحرك القافلة من البصرة إلى الدرهمية، ثم إلى صفوان، ثم إلى منزل «جهر»، وتحط رحالها للتزود بالمياه والمؤن، ثم تتجه إلى حصن النبي موسى الموجود في «أضافا»، وبعدها تتحرك القافلة مارة بالعديد من المواقع والمنازل، حتى تصل أيضا إلى «ذات عرق»، التي تعد ميقات حجاج نجد والبصرة، حيث يحرمون فيها ثم يتجهون إلى بستان بني عامر، فمكة المكرمة حيث بيت الله الحرام.

٧. طريق بغداد

يتجمع حجاج فارس وأذربيجان وغيرها من هذه المناطق في بغداد، وتتحرك القافلة من بغداد حتى تنزل بهضبة (صرصران)، فينضم إلى الموكب جموع أخرى من الحجاج متجهين نحو هضبة (قراشر)، ومنها إلى شط الفرات، ثم إلى الكوفة، فمشهد علي المسمى (سد بيداء النجف)، ومنه إلى «متعب»، ومن هناك إلى «فرع» مرورا بكثير من المراحل، حتى يلتقي بقافلة واسط في المكان المسمى «ثعلب»، ثم تتابع القافلة سيرها.

ويزدان الطريق من بغداد إلى مكة المكرمة بالأبنية وأسبلة المياه والخانات وغيرها من الأبنية رفيعة المستوى، وخاصة تلك التي أمرت ببنائها السيدة «زبيدة» زوجة هارون الرشيد العباسي، والسلطان ملكشاه السلجوقي. وقد حافظ عليها وعني بها السلاطين العثمانيون جميعا.

حماية طرق الحج

ولحماية طرق هذه القوافل كانت الدولة العثمانية تقيم الحصون والقلاع والمخافر على طول الطرق، وتوفر لها القوات التي تقوم بالحراسة وكسر شوكة قطاع الطرق والبدو والخارجين عليها. وأقامت في المدينة المنورة قلعة كبيرة وفرت لها القوات اللازمة لحفظ الأمن في المنطقة. كما كان محافظ المدينة يختار من بين كبار الضباط الذين يستطيعون القيام بالمهام المنوطة بهم على أحسن وجه، وكان يجمع في يديه بين السلطتين المدنية

والعسكرية، وكان المحافظ يلقب أحيانا بشيخ الحرم النبوي. كما أنشأت الدولة العثمانية قلعة في مكان مناسب من مضيق الجديدة بناء على طلب من الأهالي لحفظ الأمن.

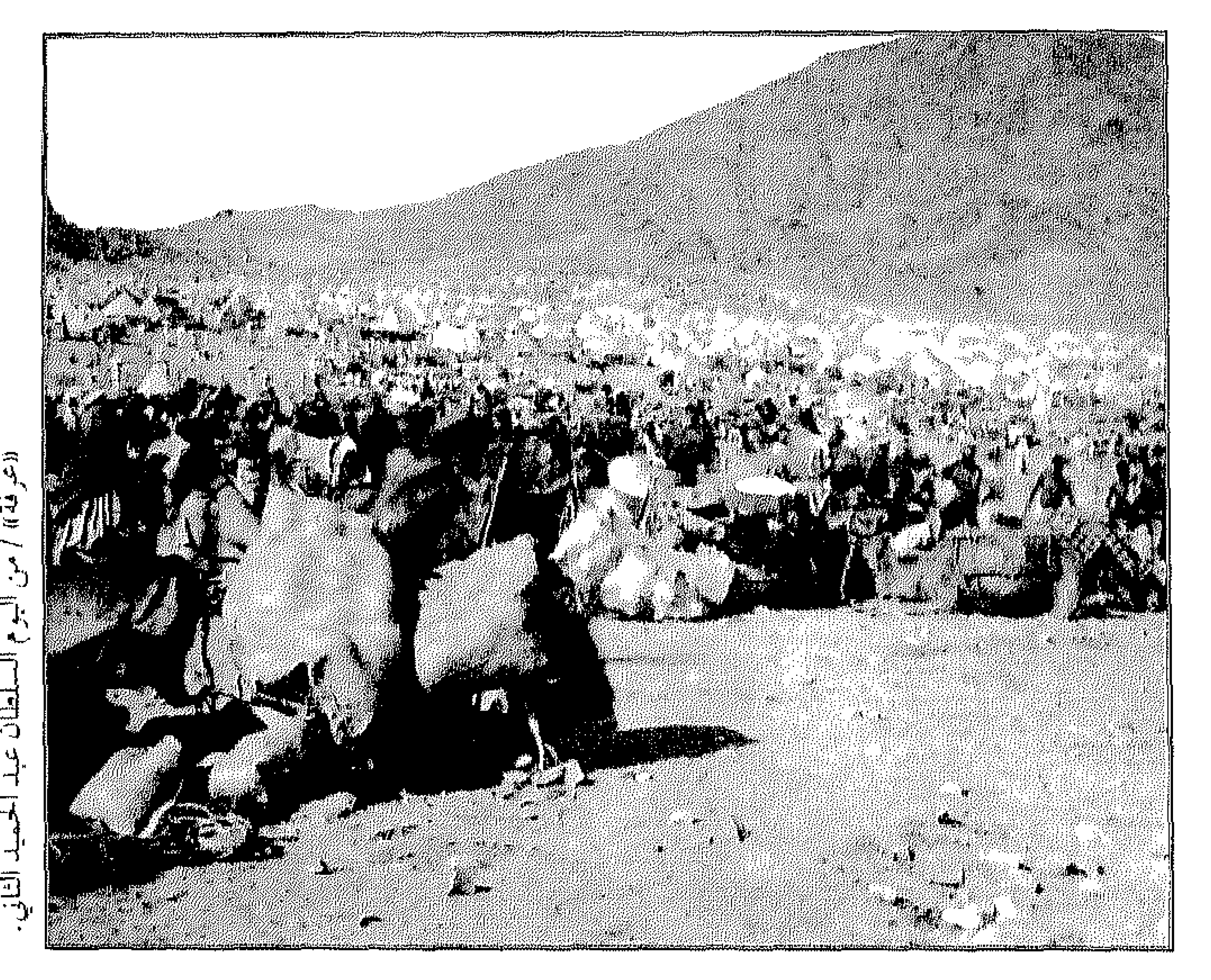
كما كان الجيش السابع الميداني خاصًّا بولاية اليمن، وكانت وحداته كلها تتألف من عساكر نظامية، وكانت فرقة الحجاز المرتبطة بهذا الجيش عبارة عن ثلاث آيالات مشاة ونصف آلاى خيالة وبطارية مدفعية. وقد حرصت الدولة على وضع محطات حراسة بجوار آبار المياه على طرق القوافل، وخاصة قافلتي الحج الشامي والمصري.

ولوقف التهديدات الخارجية لقوافل الحج والأماكن المقدسة قامت الدولة العثمانية بعمل حزام أمن حول الحجاز، يمتد هذا الحزام من سواكن وموانيء اليمن وخليج البصرة وجدة والسويس. ولقد وضعت الدولة في حسبانها أيضا حماية طرق التجارة الشرقية الوافدة من الهند.

وكانت الدولة العثمانية فيما بعد تسعى لتطوير وتنظيم موانيء جدة والحديدة وينبوع، وإقامة الأرصفة والمرافيء، وجعلت هناك أسطولا مقيما من السفن العثمانية للعمل بشكل منتظم بين السويس وعدن. وكانت هناك تقارير تقدم من حين لآخر إلى السلاطين العثمانيين تطالب بضرورة إصلاح وتنظيم وحماية الموانيء الممتدة من العقبة حتى باب المندب؛ كما كانت هناك سفن بريدية «بوسته» تعمل بانتظام بين إستانبول والحديدة، لنقل البريد والجنود بين موانيء البحر الأحمر والحجاز.

موكب الصرة السلطانية

ثم تم استحداث «صُرَّه آلايي»، وهي القوات التي كانت تقوم بالإعداد للاحتفال لخروج الصرة والمحمل وموكب الحج من أمام القصر السلطاني، ثم يناط بها الحفاظ على الصرة والمحمل وقافلة الحج، حتى تصل وتعود في أمن وسلام. وكانت هذه القوات دائما في رفقة هذه المواكب، وكانت تسير برا حتى سنة ١٨٦٤م مستخدمة الجمال والبغال والخيول. وبعد هذا التاريخ شرعت الدولة بإرسالها عن طريق السفن الحربية إلى بيروت أو السويس ومنها إلى جدة أو ينبوع، ثم تكمل رحلتها برفقة قوات الحجاز إلى أماكن الشعائر الدينية. وبعد افتتاح خط السكة الحديد الحجازي ١٩٠٨م كانت ترسل هذه القوات أيضا برفقة هذه المؤن والهبات والأوقاف، ولا تفارقها إلا بعد أن تصل إلى هدفها. وكانت هذه القوافل إذا ما خرجت برا تتحرك من إستانبول في الثاني عشر من رجب، ولكن بعد ما تقرر إرسالها عن طريق البحر أصبحت تخرج في الخامس عشر من شعبان من كل عام. كما كان أمين الصرة الهمايونية يُختار في معظم الأحيان من بين كبار العسكريين المشهود لهم بالتميز العسكري والتدين وحسن السير والسلوك والتقى الورع وطهارة اليد والعدل، حتى يشرف بنفسه على القوات المرافقة للمحمل، وقافلة الحج. كما يقوم بتسليم الفرمان الخاص بتوزيع أموال الصرة الهمايونية على الحرمين الشريفين وأوجه التصرف والصرف منها إلى شريف مكة ومشايخ الحرمين الشريفين، بحضور رجالات الدولة العلماء وقادة القوات الموجودة في كل من مكة والمدينة وجدة والطائف، وأمراء قوافل الحج. وكان



«عرفة» / من ألبوم السلطان عبد الحميد الثاني.

يشرف بنفسه باعتباره ممثلا للسلطان العثماني على أداء المناسك وحفظ الأمن والأمان خلال موسم الحج كله، إلى أن تغادر القوافل كلها المدينتين المباركتين عائدة إلى بلادها، فيعود أمين الصرة بعد أن يكون قد أشرف أيضا على توزيع الأوقاف والمخصصات على أهالي الحرمين، فيقدم تقريرا مفصلا إلى الصدر الأعظم وشيخ الإسلام في الآستانة، وبعدها يمثل بين يدي السلطان ليقدم تقريره عما أنجزه في موسم الحج ومرئياته ومقترحاته للموسم القادم. ■

---

*) جامعة عين شمس، كلية الآداب – مصر.

بسم الله الرحمن الرحيم

اقرأ باسم ربك الذي خلق

حراء شمس متجددة

أ.د. عبد الحليم عويس *

مع كل صباح تزحف أشعّة الشمس ببطء وهدوء مبدّدةً بقايا الليل المظلم، معلنة عن مَولد نهار جديد.

وأكثر الناس لا يملكون الوقت، وليس لديهم الباعث ليراقبوا زحف أشعة الشمس، وهي تكتسح ركام السحب وجبال الغيوم؛ لأنهم يعلمون أن الشمس لا بدّ أن تنتصر، وأن النور لا محالة قادم. ولأنهم -كذلك- ألِفوا تداولَ الليل والنهار خضوعا للسنّة الكونية في كل يوم.

وهكذا تمضي سنّة التداول في الزمان -دون فعْلٍ إنسانيّ- فيعقب الليل النهار، ويعقب النهار الليل، وهكذا الأمر في الظلام والنور، والشتاء والربيع.

وقد يطول ليل الشتاء، لكن مجيء الربيع حتميّةٌ كونية، وقد تسود جحافل الظلام في غياب «النور» لكنّ سنة الله الكونية لا تتخلف. فسرعان ما يعود «النور» إلى الظهور!!

وهنا يظهر الفيصل بين السنّتيْن «الطبيعية الكونية» و«الاجتماعية الحضارية»؛ فعلى الرغم من وحدة القانون، إلا أن الفعل الإنساني له دورُه المؤثّر في سنة التداول الاجتماعية الحضارية.

الربيع الحضاري

ففي حالة وجود الفعالية الإنسانية، والالتحام الإنساني الواعي بالسنة الطبيعية، والالتزام بثوابت الوحي وتوجيهاته العليا، في هذه الحالة ينجح الإنسان في إطالة فترة «الربيع الحضاري»؛ ربيع الازدهار والعطاء، وتمتدّ بالتالي مساحةُ النور عبْر الخريطة الإنسانية.

وعلى العكس، فعندما تُسيطر السكونية السلبية، ويُصبح الإنسان مجرد جزء من الزمان، يمتدّ الشتاء بقسوته وظلامه، وتنكمش مساحة النور، وتذبل سريعًا أزهار الربيع!

وهنا يتألق دور المؤمنين الفاعلين من خريجي مدرسة «حراء» التي هبطت عليها أشعة شمس القرآن الأولى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق:١). إنهم مطالَبون بالتغيير والتعمير والحركة باسم الله، ومطالَبون برفض الجمود الذي يجعلهم كأنهم بعض الزمان وخارج الحضارة والتاريخ، ينتظرون -وهم قاعدون عاجزون- دورة السنّة الطبيعية في التداول، دون أن يعملوا على تحقيق التكامل بينها وبين السنّة الاجتماعية؛ سنّة التغيير الداخلي انطلاقا للتغيير الخارجي: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١). إنهم -لو كانوا مؤمنين حقّا- أسمى من أن يصبحوا جزءًا من الصيرورة والزمان. إنهم في حقيقتهم محرّكو قطار التاريخ الحضاري، وقادة «النور». وهم القادرون قبل غيرهم على حمل مشاعل الوحي وأضواء العقل. وبالتالي هم الذين يستحقّون «الاصطفاء» ليحقّقوا «الشهادة» على الناس، ويبْلغوا مرتبة «العباد الصالحين الوارثين للأرض»... ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(آل عمران:١١٠).

وحتى لو عثرت بهم أحجار، عبْر مسيرتهم في التاريخ،

فهم -مع ذلك- المؤهَّلون للأوبة والبعث والإقلاع، مهما تطُلْ غيبتُهم عن مسرح الحضارة والتاريخ. إن لهم معالم يهتدون بها، ولهم ثوابت من الوحي -لا يأتيها الباطل- تأخذ بأيديهم إلى التي هي أقوم.

لقد غاب المسلمون حضاريًّا منذ عدة قرون، فتقدم الأوربيون -في الفراغ- وقادوا الدنيا بالعقل وحده، ونظروا بعين المسيح الدجال، وكالوا بمكاييله، وقاسوا الأمور بمعاييره المزدوجة، وزعموا أنّ لهم «جنّةً» هي حضارتهم المادية الشَّيئية، ولهم «جهنم» اخترعوا لها صورًا من الدمار!

وقد قدّموا -وهذا لا يُنكر- خدماتٍ علمية، لكنهم أتعسوا الإنسان بالدنيوية والعنصرية والحروب لأتفه الأسباب وباختراع قوانين الصدام ونظرياته المتهافتة (!) وتُوشِك البشرية التي حفروا لها القبور -حسْب مقولة «رجاء جارودي»- أن تنْتحر انتحارًا جماعيًّا عوليًّا، وتفقد ذاتها ودنياها وآخرتها.

فلا بدّ أن يستيقظ المسلمون، وأن ينفُضوا الغبار عن أجسادهم وعقولهم، وأن يخرجوا من الكهف... متلطِّفين في خروجهم، حُداةً على آمال الإنسانية، وحماةً لها من الانتحار والدمار، بالحكمة والقدوة والحوار.

ولا بدّ أن يعود معنى الصلة بين السماء والأرض... ذلك الذي تألق في «حراء» ذات يوم من سنة ٦١٠ م معلنًا عن ميلاد جديد للإنسانية. فما أحوج إنسانيتنا المعاصرة أن تُولَد من جديد وأن تقرأ من جديد ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ لا باسم المادة أو الصراع أو العلم الذي لا ينفع، والذي لا يخشى علماؤه اللّهَ...

لقد عاش المسلمون أكثر من عشرة قرون منذ هبطت عليهم ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ سادة الحضارة -كما يقول أكبر مؤرخي القرن العشرين «ولْ ديورانت»- وبهم بدأت الحضارةُ دورةً إنسانية جديدة تخلصت فيها من ظلام استمرّ عشرة قرون هي «القرون الوسطى» -كما يقولون-، بل تخلصت من ظلام هيمن على الحضارة الإنسانية عشرات القرون قبل ظهور العصر القرآني، في ظل حضارات وثنيّة وأسطورية واستعلائية، لم تقدر الله حق قدره إلا في القليل النادر من الزمان. بينما اخترعت مئات الأصنام والأوثان وخضعت لها خضوع العبيد فاقدي الوعي والإحساس.

وعندما نزلت ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ في حراء كانت شمسًا جديدةً تطلّ على الكون، جامعةً في نسيجٍ واحد بين قراءة الوحي والعقل والكون. فتحقّق لأول مرة في تاريخ الحضارات رسم خريطةٍ تتناغم فيها الربّانية والإنسانية على امتداد إشعاعات الوعي الإنساني.

وما كان ممكنًا قبل هذا الحدث الفارق أن تكون هناك حضارة إنسانية تتصل فيها الأرض بالسماء من خلال وسائل تتحدد فيها العلاقة الواضحة بين «الله» المعبود الخالق وبين «الإنسان» العابد المخلوق.

لقد كان «الكون» قبل هذا الحدث الذي وقع في «حراء» معبودًا يخشاه الإنسان ويتقرب إليه بشتّى القرابين ووسائل التعبير الدالة على الخضوع والخوف والعبادة. فجاء «العصر القرآني» يضع الكون في مكانه الصحيح؛ كونًا مسخَّرًا للإنسان، ليستخدمه الإنسان لتحقيق العبودية لله، وتعمير الأرض باسم الله، ولتسبيح الله. وبالتالي أصبح الكون الذي كان في الوعي الإنساني الوثني معبودًا «عابدًا» خاضعًا للبحث والاكتشاف والتسخير. ورجع الكون في الوعي الإنساني إلى حجمه الصحيح؛ مفْعولاً به، وليس فاعلاً، مطبعةً لا طابعًا، نقْشًا لا نقاشًا، متحفًا ومعرضًا لإظهار تجلّيات الخالق العظيم الذي استخلف الإنسان وعلَّمه الأسماء كلها وزوّده بالوحي والعقل والإرادة.

عندما تُسيطر السكونية السلبية، ويُصبح الإنسان مجرد جزء من الزمان، يمتدّ الشتاء بقسوته وظلامه، وتنكمش مساحة النور، وتذبل سريعًا أزهار الربيع! فهنا يتألق دور المؤمنين الفاعلين من خريجي مدرسة «حراء»

الإسلام والتعامل مع الكون

وما كان ممكنًا قبل هذا التحول الذي قدّمه الإسلام في التعامل مع الكون، أن تكون هناك حضارة إسلامية تمثل منعطفًا جديدًا في تاريخ التمدّن الإنساني. وما كان ممكنًا -كذلك- أن تكون هناك حضارة أوربية أو رُقيٌّ إنساني. بينما الكون معطَّل عن التسخير، يحتلُّ

مكانةً «مقلوبة»، فتتعطَّل مع وضعه المقلوب ملكات الإنسان، وبالتالي لا يجد الإنسان عالم «الآفاق» الذي يحقق من خلاله شروط الاستخلاف.

لقد نجح المسلمون «السلف» خلال مدة تزيد على عشرة قرون -كما ذكرنا- في أن يقدموا حضارةً معتدلة الموازين والقيم، تتكامل فيها ثوابت الوحي مع حركة العقل مع الرؤية الرشيدة للكون والحياة.

فلما اختل الميزان في أيديهم وفقدوا مؤهلات القيادة الحضارية، وخَلَفَ من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وأهملوا العلم والعمل، وفقه السنة الكونية والاجتماعية، أخذ منهم الأوربيون القيادة فتحركوا بالعقل وحده، مؤلِّهين «المصلحة» و «المادّية» في إطار الفرد والمذهب الفردي طورًا، وفي إطار الجماعة والمذهب الجماعي طورًا آخر، وكانت الآخرةُ والروحُ والجوانبُ الدنيوية بعيدةً كل البعد عن التنظير والتخطيط والتطبيق هنا وهناك. فعادت سفينة البشرية تجنح إلى الغرق من جديد، وسيطرت «القوة»، ومع القوة «الظلم»، ومع الظلم «ازدواج المعايير»، ومع اختلال الموازين سيطرت «العنْصرية» و«الأنانية»... فارتفعت بالتالي رايات الصدام والشقاء، وانخفَضتْ رايات التعارف والسعادة.

وهنا، وعند هذا المَحاط، لم يبق إلا أن يعود المسلمون إلى القيادة من جديد، متجاوزين عصر الانحطاط، دخولا في دورة حضارية أخرى ووصولاً بعون الله إلى عصر الشهادة على الناس، والخيرية، والقيادة الحضارية للإنسانية!

وكما خرج «النور» من «حراء» عندما هبط الوحي معلنًا بداية العصر القرآني، «عصر تكامل القراءات السماوية والكونية والعقلية» كذلك ينبغي أن يتمثل المسلمون في دورتهم الحضارية الجديدة معاني البعث القائم على القراءات المتناغمة المتكاملة السابقة بلا تعارض أو خلل!

شمس القرآن

ومن هنا ينبغي النظر إلى شمس القرآن بعين جديدة «أصيلةٍ معاصرةٍ» لا تهمل الماضي ولا تتجاهل المستقبل. وفي هذا المقام قد نجد بين أيدينا عددًا رائعًا من الرؤى التي لا يمكن الغضُّ من قيمتها ولا الانتقاص من قدر أصحابها. هؤلاء الأعلام الذين حاولوا بعث الأمة من خلال الحياة في ظلال القرآن والحياة في فقه السيرة.

بيْد أننا نرى أن لـ«رسائل النور» لبديع الزمان سعيد النورْسيّ ريادة خاصة، كما نرى للمشروع الفكري السائر على درب «النورْسيّ» الذي يقدمه بآلياتٍ معاصرة عمْلاقة الداعية المصلح الشيخ «فتح الله كولن» ممثلاً في «النور الخالد» وفي نحو خمسين كتابًا معه ريادةً خاصة كذلك.

والمشروعان لا ينفصلان، وكلاهما قدَّم ما يستطيع في ظل الظروف المتاحة، وهما يصبّان في خندق واحد ويتّجهان إلى غاية واحدة.

إنها غاية إنقاذ الإنسانية والمسلمين، من خلال «القرآن» ومن خلال تطبيق النبيّ الكريم للقرآن على الواقع، وهو النبيّ الكريم الذي كان «قرآنًا» يمشي على الأرض والذي كان «خلقه القرآن» قولاً وفعلاً وتقريرًا، بعيدًا عن «المثالية» العاجزة عن التطبيق والتي حلم بها الفلاسفة الطوباويون. وأيضًا ارتفاعًا بمستوى «الواقعية» التي يهبط بها إلى «الحيوانية» الواقعيون.

لقد قدم النبي ﷺ واقعيةً ترتفع إلى قريب من شمس «النور الخالد»... شمس المثالية الإنسانية التي لا يمكن أن يصنعها إلا كتاب الله فكرًا وتربيةً وتنظيرًا، وسيرة الرسول الكريم ﷺ فعلاً وحركةً وتطبيقًا.

وبالفكر القرآني والتطبيق النبويّ تتحقق الحضارة الإنسانية التي انطلقت من «حراء»، بعد أن هبط بها جبريل عليه السلام من السماء. ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ (النور: ٣٥).

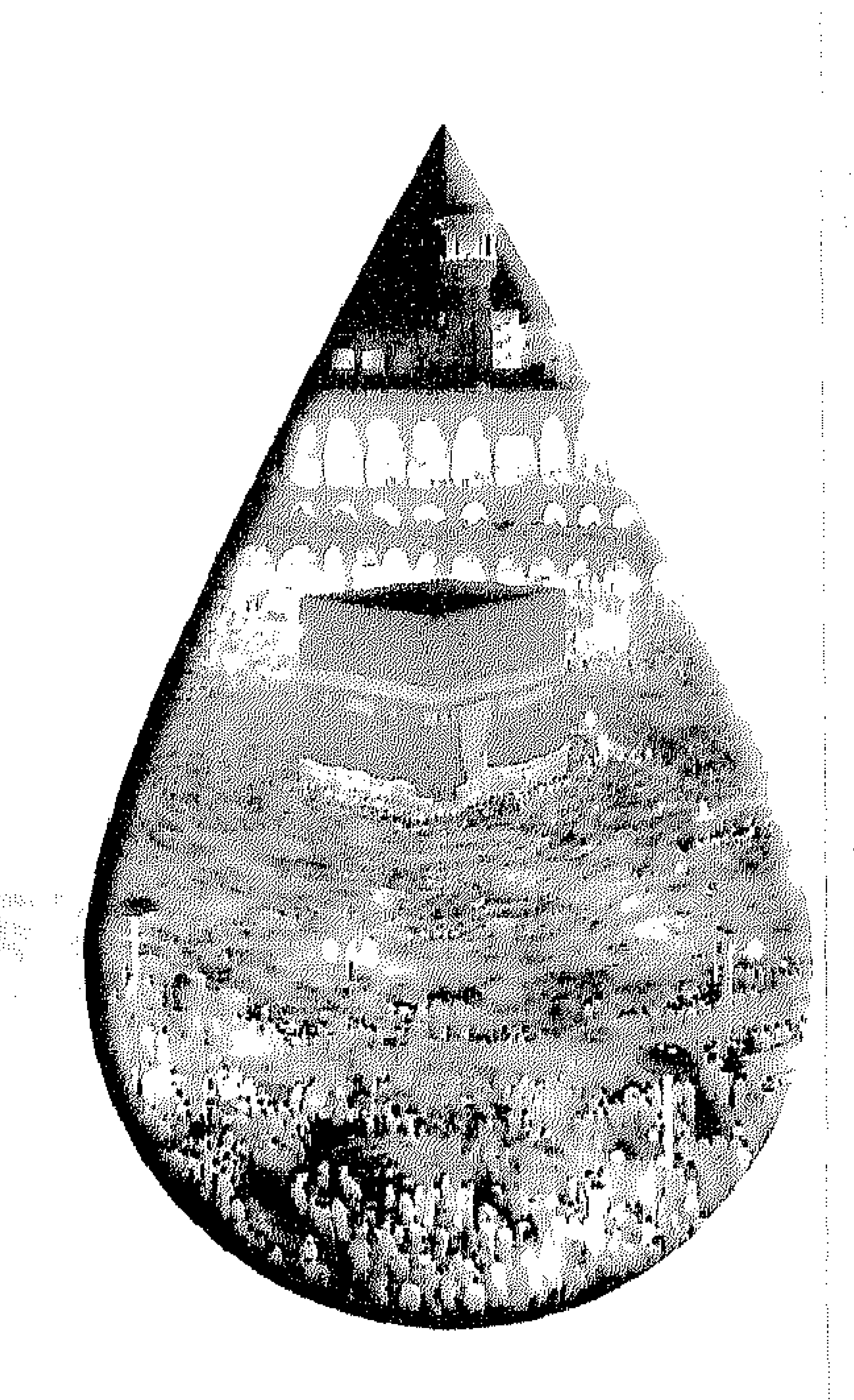
وعلى المسلمين استئنافها اليوم مستعينين بالله، وما ذلك على الله ببعيد! ■

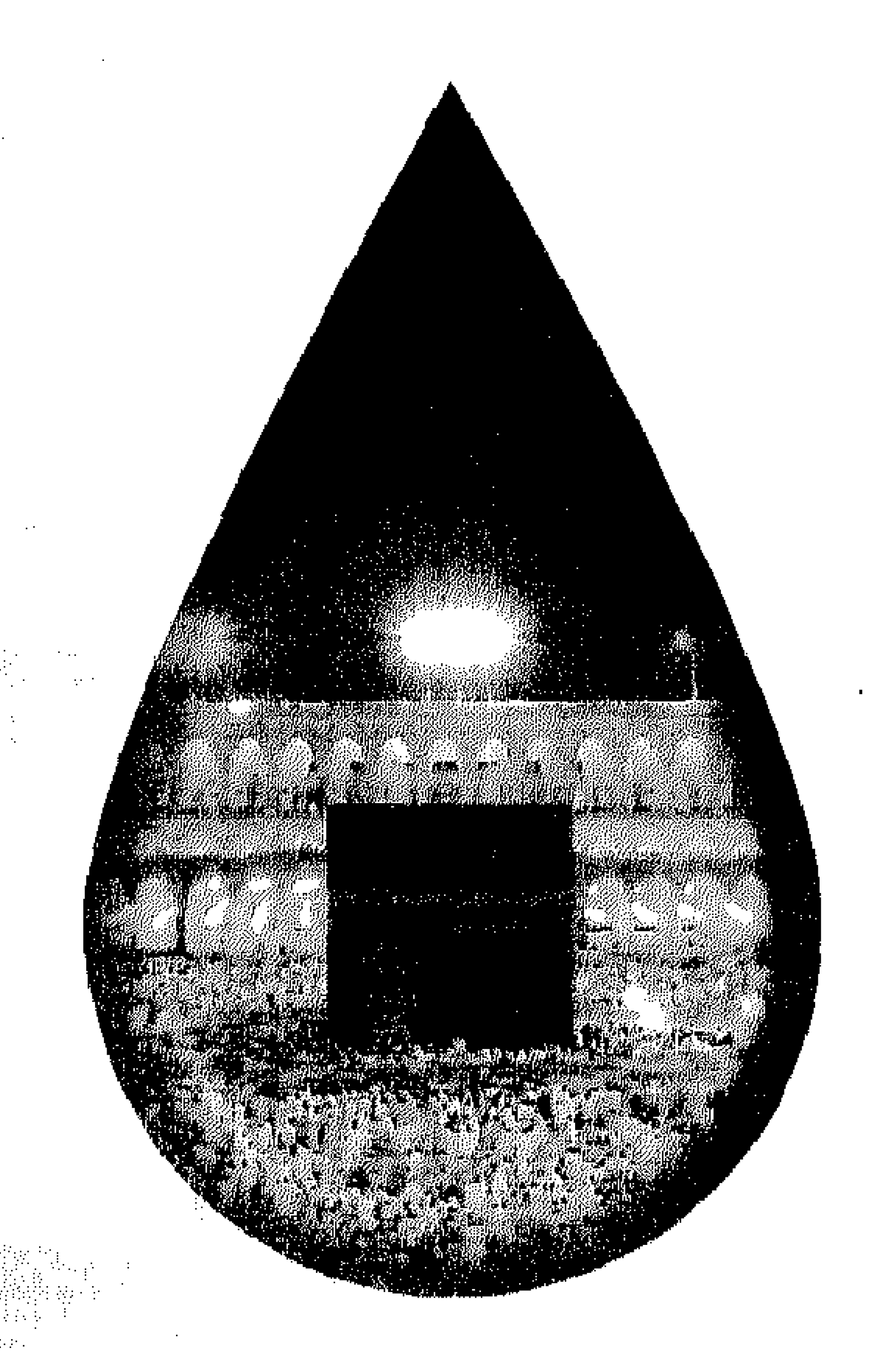
فلا بدّ أن يستيقظ المسلمون، وأن ينفُضوا الغبار عن أجسادهم وعقولهم، وأن يخرجوا من الكهف... متلطِّفين في خروجهم، حُداةً على آمال الإنسانية، وحماةً لها من الانتحار والدمار، بالحكمة والقدوة والحوار.

(*) أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية – مصر.

أم ما زلتَ ظمآنا ؟!

هل طفتَ بالبيت ، أم ما زلتَ ظمآنا؟! أم هيّج الشوق في جنبيك نيرانا؟!
وهل سعيتَ كما الأنفاسُ لاهثة بين الشهيقين تسبيحاً وتحنانا؟
أرحتَ ترمل بين الأخضرين كما تدفّقَ النبضُ في الأوصال ولهانا؟
وهل سمعتَ يمامَ البيت مبتهلاً ؟ وهل قرأتَ بذاك الفجر قرآنا؟
علّقتُ قلبي بخيط الفجر فانبعثتْ سجّادة الوصل في البيداء بستانا
كيف السجودُ الذي أرقاهُ يزرعني بغير ذي الزرع نسريناً وريحانا
لهجتُ بالحب حيث القول طاوعني تراهُ يعلن بعد اليوم عصيانا؟
يا جار بكّةَ طوبى للمقيم بها لقد سكنتَ أعزّ الأرض أوطانا
تُجاور البيت حين الأرضُ موحشةٌ لأنتَ آنسُ خلْق الله إنسانا
تُصافح الركنَ حين الناسُ في حرَدٍ فأنتَ أوفرهم أهلاً وخِلانا
ما زلتُ أسأل وعيي أهو في سِنةٍ من الأمانيّ أم هل باتَ يقظانا
أنا بمكة - إي والله- لا حلُماً ولا ادّعاءً ولا وهماً وبهتانا
عيني تعانق ما طافت شواهقَها وتلثمُ الأرضَ أنجاداً ووديانا
إني ألبّي وعين الله شاهدةٌ ومِن صدى الوجد قد صُدّعتُ وجدانا
تَجدّد العمرُ في عرفات وانغسلتْ بالطهر نفسي وفاض القلبُ إيمانا **
زُلفى إليكَ رجالاً، قد أفاضَ بنا فيضٌ من الشوق يحدونا، ورُكبانا
نرمي الجمار ويعلو الحقُّ منتصراً والنحرُ سِيقَ بيوم النحر قربانا
ذي كعبة الله كيف اليومَ أبرحها؟! وعشتُ أشتاقها عُمراً وأزمانا
يوم الوداع وداعِ العاشقين لها أطوفُ والدمع في خديّ طوفانا
أرجّعُ الطرفَ والخُطواتُ حائرةٌ مَن ذا يطيقُ لها بيناً وهجرانا؟!
يا رامة البيت قد أرمأتُ معتكفاً أرجو وقد رانت الآثامُ غفرانا
يا رب أنتَ وعدتَ التائبين، وإن ذنوبُهم بلغت كالموج إحسانا
اليومَ أُبنا وذُبنا ربنا خجلاً ألستَ يا ساتر الكبوات منّانا ؟
برحمةٍ منك يا مَن قبلَ تخلقنا سمّيتَ نفسك يا رحمانُ رحمانا ■

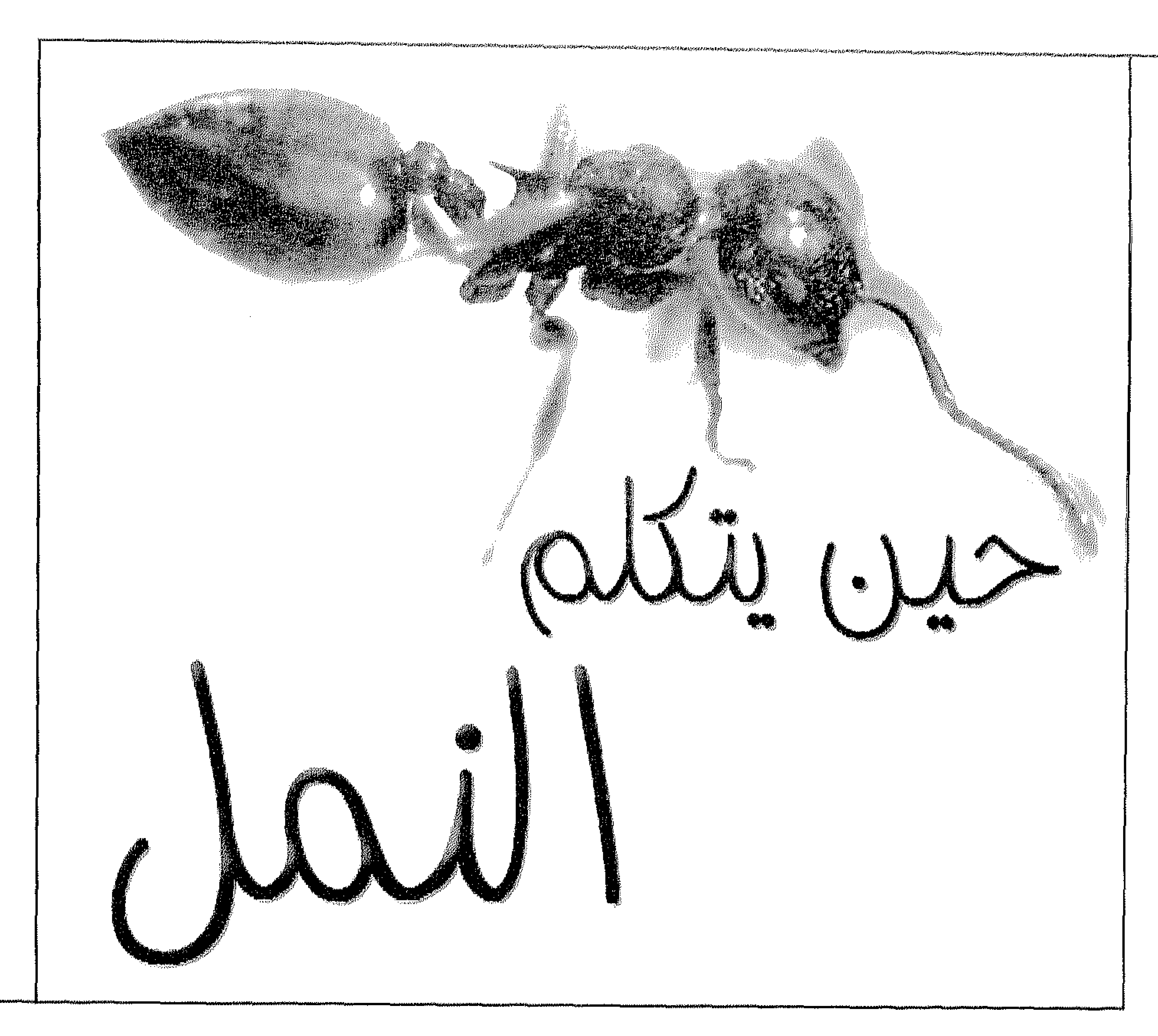




نبيلة الخطيب *

*) شاعرة وأديبة – الأردن.

**) تزامن يوم ميلاد الشاعرة ويوم عرفة في رحلة الحج الأولى لها، فكأنما وُلدت مرتين.



حين يتكلم النمل

أ.د. عرفان يلماز *

تحياتي أيها الإنسان!

لك الشكر لأنك أدركت وجودي ولم تسحقني تحت أقدامك. كم تقتل كل يوم من أبناء جنسي تحت أقدامك، هل فكرتَ بذلك؟ من المؤكد أنك تفعل ذلك دون قصد! حسناً. إن كل نملةٍ أو حشرة صغيرة مثلي إنما هي آية خارقة من آيات الفن والإبداع لن تستطيع الإتيان بمثلها. ربما تكون هذه الدلائل بديعة الصنعة مصدر إلهام لك. إن صنع ساعة صغيرة يتطلب من صانعها إرادة ومهارة فائقة في جمع وتركيب أدوات عديدة وأجزاء دقيقة حتى تستطيع حساب الوقت بدقة وكفاءة. أما أنا فأتفوق على هذه الآلة دقةً وكفاءة وأُعتبر أقوى حيوان على وجه الأرض، فإن خلقي لا يمكن أن يتم إلاّ بالعلم الواسع والقدرة اللامتناهية للخالق البارئ.

قد تتعجبون وتستغربون من قولي إنني أقوى مخلوق. ولكن هذا القول ليس بالغريب إذا ما نظرنا إلى الأمر من زاوية مبدأ التناسب. فأنتم تستطيعون حمل أثقال ضعف أوزانكم أو ثلاثة أضعافها. أما أنا فأحمل بأسناني خمسين ضعف وزني. هكذا أنا، تحفة ربانية وآية فنية رائعة.

إنني أشكل جمعاً غفيراً يُعدُّ أكبر مجموعة بين أجناس وفصائل الأحياء. كل أربعين ولادة جديدة عندكم يقابلها عندنا سبعمائة مليون ولادة. رغم عددنا الهائل هذا، لا نسبب أي إزعاج أو إفساد في هذا العالم، بل ننشغل بأداء الواجب الإلهي المقدّر لنا بكل همة وتنسيق وحُسن أداء بعيداً عن أنظاركم. تجدوننا في جميع أرجاء وبقاع الأرض ما عدا المناطق القطبية، لأننا نفضّل العيش في المناطق الدافئة.

نحن مخلوقات اجتماعية وجماهيرية النزعة. نعيش مع بعضنا ونؤدي واجباتنا المقسومة والمقدّرة لنا بكل حرص وطاعة متناهية مستهدين بالمعرفة والقدرة الربانية التي توجّهنُا. نؤسس مستعمرات سكنية كبيرة كالمدن العظيمة تعيش فيها ملايين منا؛ ولنا فيها مخازن لِقُوتِنا، وبيوت لتربية صغارنا وقلاع لجنودنا. نتوزع في فصائل تتجاوز تسعة آلاف، يتألف كل فصيل بحسب المنهاج المعدِّ في خَلقه من الشغيلة العاملة في التنظيف، إلى المزارعين ومربي الحيوانات. وتتمتع كل فصيلة بصفات وميزات جسدية تؤهلها لأداء الواجب المحدد لها.

لعل ميزتنا الكبرى تتجلى في دقة التنظيم الاجتماعي الذي لم تستطيعوا أنتم البشر تحقيقه فيما بينكم حتى الآن. ورغم وجود الأنبياء والرسل بينكم، لم تصلوا إلى تأسيس مجتمع مثالي (عدا

فترات قليلة مثل عصر النبوة السعيد وفترات متفرقة على شاكلته). ورغم تجهيزكم بمميزات مثل العقل والإدراك والمشاعر، إلاّ أنكم تمتلكون أيضاً الأحاسيس السيئة والنفس الأمارة بالسوء كأدوات اختبار وامتحان تقف عثرة أمام وصولكم إلى تأسيس المجتمع المنشود.

نحن مع عجزنا وضعفنا، نستند إلى ما أوحاه لنا خالقنا، وما فصّله لنا من نمط الحياة، بطاعة تامة وتسليم مطلق دون تفسير أو تأويل. وبعملنا الدؤوب وهمّتنا المتواصلة استطعنا تأسيس نظام مملكة ودولة ومؤسسات بالغة الكمال والتنظيم.

حياتنا الاجتماعية

هذه الحياة التي تأسست بوحي الخالق تعتمد على مبدأ التفاني والتضحية. يقوم كل فرد بأداء ما يوكل إليه مِن واجبات، دون التدخل في أمور الآخرين، وتتقدم مصلحة المجموع على مصلحة الأفراد وصولاً إلى حياة اجتماعية قاعدتها الذهبية «التنظيم والتنسيق».

هذه التصرفات التي تعتبر صفة امتياز لكم أنتم بني البشر لا يمكن مطلقاً تفسيرها أو تأويلها استناداً إلى نظريات التطور والتغيير والانتخاب الطبيعي. إن أنصار نظرية التطور يدّعون أننا تطورنا قبل ثمانين مليون سنة من نحلة بريّة نتيجة عوامل التنازع على البقاء.

أيْ كنا نعيش على شكل أفراد فأحسسنا بفوائد ومزايا العيش في مجموعات كثيفة لنحافظ على ديمومتنا فقلنا لبعضنا البعض: «لنكن حشرات اجتماعية، لأن العيش في مجموعة أفضل وأصلح لنا من نزاعنا على البقاء بين الأجناس والأنواع الأخرى». لنَقبل جدلاً أننا توصلنا إلى هذا المنطق والتفكير واتفقنا عليه، كيف إذن توصّلنا إلى خلق أصناف متعددة، وهذا التنوع في الوظائف، ثم هذا التقسيم في المهام وما يتطلبه من مميزات وآليات بدنية خاصة لكل صنف لكي يؤدي وظيفة محددة إلى جانب آليات التكاثر؟ ليس لدينا كل هذا العلم، كما لا نملك هذه القدرة.

الملكة - العاملة - الجندي

كيف بدأ تقسيمنا حسب متطلبات واجباتنا منذ بداية خلقنا ووجودنا إلى ملكات وعاملات وجنود، وكيف أتت كل هذه الفروق؟ من الذي أقنع عاملاتنا على التخصص والتفرغ لخدمة ورعاية الملكات؟ حسب نظرية التطور فإن كل فرد يفكر لنفسه فقط، وهو في نزاع وصراع دائم مع غيره للبقاء. مَن الذي أوكل لجنودنا مهمة الحراسة؟ مَنْ غيرُ صاحب «القدرة اللامحدودة» يمسكُ هذه الملايين من الأفراد ضمن مجموعة متعاونة ومتفانية؟!

تمتد سيطرة بعض ممالكنا إلى حوالي ٢,٥-٣ كيلومتر مربع من الأرض. وتتشكل كل مملكة من أربعين إلى خمس وأربعين مستعمرة تترابط فيما بينها رغم وجود مليون من الملكات وأكثر من ثلاثمائة مليون من العاملات، تعيش في تناغم وتناسق دون حدوث أي اضطراب أو إزعاج.

ملكاتنا مكلّفات بوضع البيوض مدى الحياة لديمومة واستمرارية بقاء الخلية، وقد توجد أكثر من ملكة في كل خلية. واجبات الذكور المتميزين بكبر أحجامهم تنحصر في نقل الحيامن إلى الملكة خلال جولة قصيرة من الطيران، وتنتهي بعدها حياتهم إلى الفناء.

جنودنا مجهزون بأسلحة كيميائية خاصة، وواجبهم الحفاظ على أمن وسلامة الخلية بما زُوّدوا به من أسنان ورؤوس قوية. هؤلاء لا يفكرون مطلقاً بالقيام بانقلابات أو ثورات. ينحصر تفكيرهم في مستقبل دولتهم دون أن يخطر على بالهم الحصول على المنافع أو اللجوء إلى استخدام وسائل قذرة وتحت أستار الظلام. العاملات المسؤولات عن الحياة الاقتصادية لمملكتنا أناث عقيمات قاصرات عن الإنجاب.

يقوم قسم من العاملات بتغذية وخدمة الملكة والأجنّة بكل همة ونشاط. بينما تنهمك أخريات في تهيئة مساكن إضافية وحفر أنفاق للقادمين الجُدد، وتخرج أخريات في مهام الكشف والتفتيش عن مصادر الطعام، ومتى ما وجدوا مصدراً جديداً

للغذاء يخبرون الآخرين عن مكانه. وهناك فئات وتشكيلات ثانوية بين الجنود والعاملات تتوزع مهامها في أعمال البناء وجمع القوت وتربية النسل الجديد وحراسة الأسرى، ومجموعات متخصصة للسلب والنهب.

العاملات المخلصات

اقتصاد مملكتنا يقع على عاتق عاملاتنا. فهي تستعمل أفواهها المسلحة بفكوك متينة لتكسير وتفتيت حبات القمح رغم صلابتها، ومن ثم طحنها وتسليمها إلى مجموعة أخرى من العاملات لكي تقوم بعجنها ونشرها لتجف تحت الشمس على شكل أقراص رقيقة تُخزن مؤونة لموسم الشتاء.

تكييف الأجواء داخل الخلية

مئات الخلايا التي تشكل مملكتنا تمتاز بوجود معايير دقيقة جداً في تأمين الظروف المناخية الجيدة داخلها. نحن الذين لم ندرس أو نتعلم علم الأنواء الجوية والمناخ أو فيزياء التكييف، بل لا نعلم كيف يجب أن تكون شروط تهيئة الظروف المناخية الملائمة، نجد أنفسنا، وبتوجيه إلهي حكيم، قد هيأنا فعلاً أجواءً وظروفاً متوازنة عجيبة. إنّ بناء مداخل الخلايا باتجاه الشمس وضبطها اعتماداً على المجال المغناطيسي للأرض، وعزل منافذ التهوية، وخلق أجواء مناخية داخل الخلية بالمحافظة على الحرارة المناسبة طيلة ساعات النهار، كل هذه الأمور ليس لنا أي علم أو دراية بها. نحن لا نملك العلم الكافي لاتخاذ القرار الخاص بفتح منافذ جديدة للتهوية، ولا بالسيطرة على توازن الحرارة والبرودة عند توسيع مساحة الخلايا لاستيعابها أعداداً إضافية جديدة، ولا بتحديد حجم واتجاه التوسعات المطلوبة بشكل لا يحدث خللاً في أجواء المستعمرة... كلا فالاستقرار والسكينة يجري تأمينهما في مملكتنا بالإلهام المستند إلى التقدير الرباني الذي لا حدود لقدرته وعلمه. فحين يشح الغذاء -مثلاً- تبادر العاملات إلى تقديم خدمات وآلية تغذية خاصة. فهي تمتلك خاصية في معدّاتها الإضافية الاحتياطية حيث تتحول المادة الغذائية إلى حالة مركّزة عن طريق معاملتها بمواد كيميائية تتم بها تغذية الأفراد التي أصابها الضعف والهزال. وحالما تنتهي حالات نقص الغذاء، ترجع هذه العاملات إلى الأوضاع الطبيعية التي كانت عليها. كيف يتسنى لمملكة تعدادها خمسون مليون فرد أن تخلو تماماً من المصاعب والخلل لولا هذه التضحيات؟!

نحن نؤمن بمبدأ «الوصول إلى الهدف بأقصر طريق». نخرج للبحث عن الغذاء بنسق واحد ونعتمد في متابعة طريقنا على الروائح التي يتركها الآخرون.

إنّ مساكننا ليست دائما تحت الأرض. فبعض الأنواع منا تسكن فوق الأرض، وأخرى تبني أعشاشها على النباتات والأشجار. الأنواع التي تعيش تحت الأرض لا تملك أجنحة عادة. وإنما تتحول إلى أفراد قابلة للتكاثر وذات أجنحة عندما يحصل ازدحام كبير ويتقرر تشكيل مستعمرة جديدة فتغادر المستعمرة طائرةً، ويتم تلقيح الملكة من قِبَل الذكور قَبل أن تحط المجموعة على الأرض. وهنا ينتهي دور الذكور وتموت، بينما تستمر الملكة بإنتاج البيوض طيلة حياتها. هنا تسقط أجنحة الملكة لعدم الحاجة إليها، وتبني لها غرفة تضع فيها بيوضها في صفوف. وبعد ستة أو ثمانية أسابيع تفقس لتخرج منها العاملات البالغات التي تتغذى على ما تطرحها الملكة مِن إفرازات، وسرعان ما تبدأ العاملات ببناء وتشييد خلايا وأماكن جديدة.



كذلك نتمتع بذاكرة قوية جداً حيث نلتقط صوراً لكافة الأماكن التي نمرّ بها ونحفظها ونخزّنها في ذاكرتنا، لكي نعود ثانية إلى أعشاشنا إذا ما ابتعدنا عنها. ونعتمد في ذلك على ما

وهبنا الخالق «الحافظ» من مكرمة الحفظ. نمتلك أيضاً موهبة نقلِ وإيصال المعلومات ومنظومات تبادل الأخبار فيما بيننا. وكما ورد في الآيتين (١٨-١٩) من سورة النمل كان نبي الله سليمان عليه السلام يفهم لغتنا. نعم إن لجميع الكائنات والموجودات لغاتها الخاصة، غير أنّ القرآن الكريم تحدث صراحةً عن لغة الطيور، وضمناً عن لغتنا. إن ربنا الذي أنزل القرآن لتقرأوه وتتدبروه وتفقهوه وتنظموا حياتكم ومعاشكم وفقه يكشف أمامكم حقائق ومعارف كثيرة تتوصلون إلى إدراكها لو أمعنتم النظر جيداً. إن الله جل جلاله سمى سورة من سور الكتاب الحكيم بـ«سورة النمل». هذا الكتاب الذي يعتبر بمثابة فهرست الكائنات والموجودات؛ أليس في تلك التسمية حكمة بالغة؟!

لماذا يا ترى سمّيت سورة كاملة باسمي، أنا المخلوق الصغير الذي لا يكاد يُرى بالعين عندما أمشي على الأرض فأتعرض للسحق تحت الأقدام أحياناً؟

لنتذكر معاني الآية الثامنة عشرة من سورة النمل ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾(النمل:١٨)

سوف نتوصل إلى إدراك بعض النتائج انطلاقا من الآية الكريمة: ١. لنا لغتنا الخاصة بنا. ٢. تحكمنا وتديرنا سلطة موحدة تخطط وتفكر وتعمل لمصالحنا وتتبع سياسة حكيمة في إدارتنا. ٣. نتحرك تبعاً لأوامر تصدر إلينا ونتّخابر فيما بيننا. ٤. نمتلك حياة اجتماعية منظمة وجماعية. ٥. عندنا المخابرون والمراسلون، ومَن يؤمّنون التنظيم والسيطرة.

لقد توصلتُ إلى هذه الحقائق من آية قصيرة رغم إدراكي المحدود. وأنتم كذلك بإمكانكم أن تتصوروا وتدركوا أنّ الأرض تهتز وتنقل أمواج الاهتزاز تحت أرجل جيش سليمان عليه السلام وتصلنا عبرها أخبارهم لو أمعنتم فقط النظر بعين عالم طبقات الأرض «الجيولوجيا» وعلوم الأحياء. لقد كنا نحسُّ وندرك أقل اهتزاز يحصل على وجه الأرض بما لدينا من وسائل وإمكانات للالتقاط والاستشعار في أرجلنا وانحناءات أجسامنا في وقت لم يكن أحد قد توصّل إلى معرفة ذلك أو حتى علم بها.

لقد أدرك علماء الأرض مؤخراً ومتخصصو الزلازل ومراقبو عالم الحيوان حقيقة خروجنا نحن النمل من أعشاشنا وتركنا لمستعمراتنا قبل وقوع الزلازل.

لقد كان أجدادكم أكثر انتباهاً منكم لهذه الحقائق. فلم يكونوا يشيّدون مبانيهم في أرض لم نكن بنينا عليها مستعمراتنا. لقد أدركوا أننا لا نبني أعشاشنا على تربة غير مستقرة وغير متماسكة. كما أدرك مؤخراً مهندسو العمارات العالية إلى ما توصلنا إليه نحن من وسائل رخيصة وعملية في تنظيم التهوية والمحافظة على الحرارة. ومن جهة أخرى بدأ علماء الحاسبات في إيجاد الحلول والتصاميم الخاصة بتأمين سلامة انتقال ونقل خزانات الوقود وإيجاد وسائل تحول دون تعرضها للحوادث، كل هذا استناداً إلى برنامج خاص سمي باسمنا، مستأنسين إلى ما تتبعها مملكتنا من وسائل خاصة في إدارة شؤونها.

إنّ ما يدعو إلى أسفنا ويحزّ في نفوسنا عدم إدراككم هذه الحقائق، أنتم الذين تُسمَّوْن بأصحاب القرآن الحكيم رغم ما تؤكده آياته عليكم من ضرورة ووجوب قراءة كتاب الطبيعة والخلق والتفكرُ فيه. بينما يتوصل غيركم إلى إدراك تلك الحقائق على الرغم من أنهم لا يعرفون شيئا من القرآن.

إن جميع أنواعنا سواءٌ تلك التي تتغذى على البقايا الحيوانية أو النباتية تؤدي خدمة جليلة وهي خدمة التنظيف، فهي أثناء عملها تنظف وجه الأرض وتحول دون تحوّلها إلى مزبلة كبيرة مروعة. ولكي نستطيع تأدية هذه المهمة، زوّدَنا الخالق القدوس بزوجين من الفكوك في أفواهنا؛ الفك الخارجي أكبر حجماً ويفيد في حمل الطعام وحفر الأرض، بينما الفك الداخلي الأصغر يقوم بتفتيت الطعام وتقطيعه.

عزيزي ابن آدم!

وأنا أنهي كلامي، أتمنى أن تلاحظ مستقبلاً حينما تخطو على الأرض جمال هذا المخلوق الصغير وكيف أنه آية من آيات الفن الإلهي العظيم. كما أرجو منك ألا تَسحق إخواني، وأن تعاملهم كما عامل سليمان عليه السلام أجدادنا.. ولك مني خالص التحية والتقدير... والسلام... ■

---

*) جامعة ٩ أيلول - تركيا. الترجمة عن التركية: مأمون محمد عاكف.

صباح العيد في مسجد السليمانية



يحيى كمال بياتلي *

فاض النور في قلبي لحظة بعد لحظة...
إذ الفجر المهيب يسطع في «السليمانية»،
في ساعة العيد هذه، وتحت قبة السماء الزرقاء،
ترتفع ستارةُ الزمان المُغبَرَّةُ، آناً بعد آنٍ،
وترتسم صور للناس جميعاً، للبلاد كلها،
من تسعة قرون غابرة،

* * *

في هذه اللوحة الزرقاء...
فمنذ انحسار ظلمة الليل...
يُسمع صوتُ رفيف الأجنحة في السماء،
ووقْع الأقدام على الأرض
إنه قدوم، وما أعظمه من قدومٍ،
من عالمٍ مباركٍ وعجيب...
السماءُ مزدحمة بالأرواح من مداها إلى مداها...
قدومٌ ومواكبُ من الآفاق كلها،
من حملات النفير في الماضي،
من بلادٍ، يا لها من بلادٍ،
فُتِحَتْ في تلك الغزوات..
وإبّان امتزج الضياء بالظلام في هذا السكون...
يمشي بلا انقطاع خليط من البشر والأرواح!
يَرقَون من الأرض، أو يهبطون من السماء..
يَلِجون من الأبواب صفوفاً إلى مسجد الله،
ويملؤون رحاب مسجد الله،
فتغدو «السليمانية» تاريخاً في هذه الساعة...

* * *

قد نَذَر هذا المعبدَ لله الودودِ شعبٌ كله جُندٌ...
أشدُّ الخلقِ قتالاً، وأقواهم شكيمةً،
جوهرُ آمال الخيال الذي صَوّر هذا المسجدَ،
أنْ يكون أجمل معبد للدين الأخير المبين...
واختار له تلاً مباركاً في أُفُق استانبول مكاناً،
ليشهد الآباد منه، من كل ركنٍ وصوبٍ...
حَمَل المجاهدون، ورؤساؤهم لَبِناته على أكتافهم،
وقَهَرَ صُلْبَ أحجارِه آلافُ الصُنّاع ومهندسُهم...
وإنّ معمارَ معبدِ النصر هذا جنديٌّ مقاتل،
فتح باباً من أبواب الآخرة،
من هنا نحو صفحة السماء،
نحو زمان الوطن الحر الوطيد، بليلِه ونهارِه،
لتدخلَ منه جيوشُ الأرواحِ إلى الرحمة الأزلية...

* * *

أيها المعبد العتيد: أنا لم أفهمك إلا هذا الصباح!
فخورٌ أنا بك الآن، لأني ممن ورثوك...
وكنتُ أظنك زماناً أثراً هندسياً عظيماً!
لكني، إذ أنظر الآن إلى هذا الحشدِ تحت قبتك،
أنتقل إلى إقليم الغفران للأجداد،
وكم كنت أحلم به ويتوق إليه شوقي!
هنا حشودُ البشر انصهرت،
في لسانٍ، وقلبٍ، وإيمانٍ واحدٍ،
تُحسُّ بوحدة وجودِها في مكان واحد،
إذ يذكرون الله الجليل بلسانٍ واحدٍ،
فيُسمَعُ التكبيرُ ألفَ موجٍ في صوتٍ وا[illegible]
يرتفع إيقاع أنغامهِ عالياً وزاخراً،
مختلطاً بألف رايةٍ، وهادراً في أعرافِ [illegible]سٍ.

* * *

ورأيت في الصف الأول جندياً عَرَفتُهُ من لباسه،
منصتاً إلى تكرار التكبير في وَجْدٍ...
ما أنقى الصفاء في سيماء هذا الجندي المؤمن!
من ذا ؟
لعله الذي بنى هذا الصرحَ العُلوي ؟
لعله الذي صممه ؟
أم هو الجندي التركي،
القادمُ من سهل «مَلاَزْكِرْد» ؟
هذا الطافحُ بالعَبرةِ عينُه،
الناظرةُ من العمق،
هذا الذي وجهه أجمل وجوه الشجعان في الأرض،
هذا الذي يبدو على قَسَماته رَهَقٌ من عظائم الأمور...
هو قوتنا التي أقامت هذا الوطن العظيم، وحارسه...
هو وجودنا، ودمنا، ولحمنا...
هو الوارث الحي للوطن، هو صاحبه،
هو سلوى الشعب في هذا الزمان،

* * *

في أرضنا اليوم، في كل أرض بقيت لنا...
وفي كل أرض فقدناها منذ أمد بعيد!
حُمرةٌ كثيفةٌ تفصل الأرضَ عن السماء...
كَأَنّ حدائقَ الوردِ تلتهب في الجبال التي أمامنا!
وثَمّ نداء التكبير كالمدافع في السماء،
تنفذ من الأعماق إلى الأعماق،
فهذه مئات المدن تنادي بعضها...
أهي قريبةٌ أم بعيدةٌ النداءاتُ؟
أَمِنْ «أُسكدار» ؟ أم من «الحصار» ؟ أم من «قواقلر» ؟
أَمِنْ «بورصة» ؟ أم «قونية» ؟ أم «إِزمير» ؟
من بعيدٍ إلى بعيد!
ثُم تتصادى أصواتنا
من جَبَلٍ، إلى

الآن ترتفع الأصوات تنادي من كل بُعْدٍ،
من «بايزيد»، من «وان»،
نداءً بعد نداءٍ، أصوات المدافع نفسها،
من كل مكانٍ...

* * *

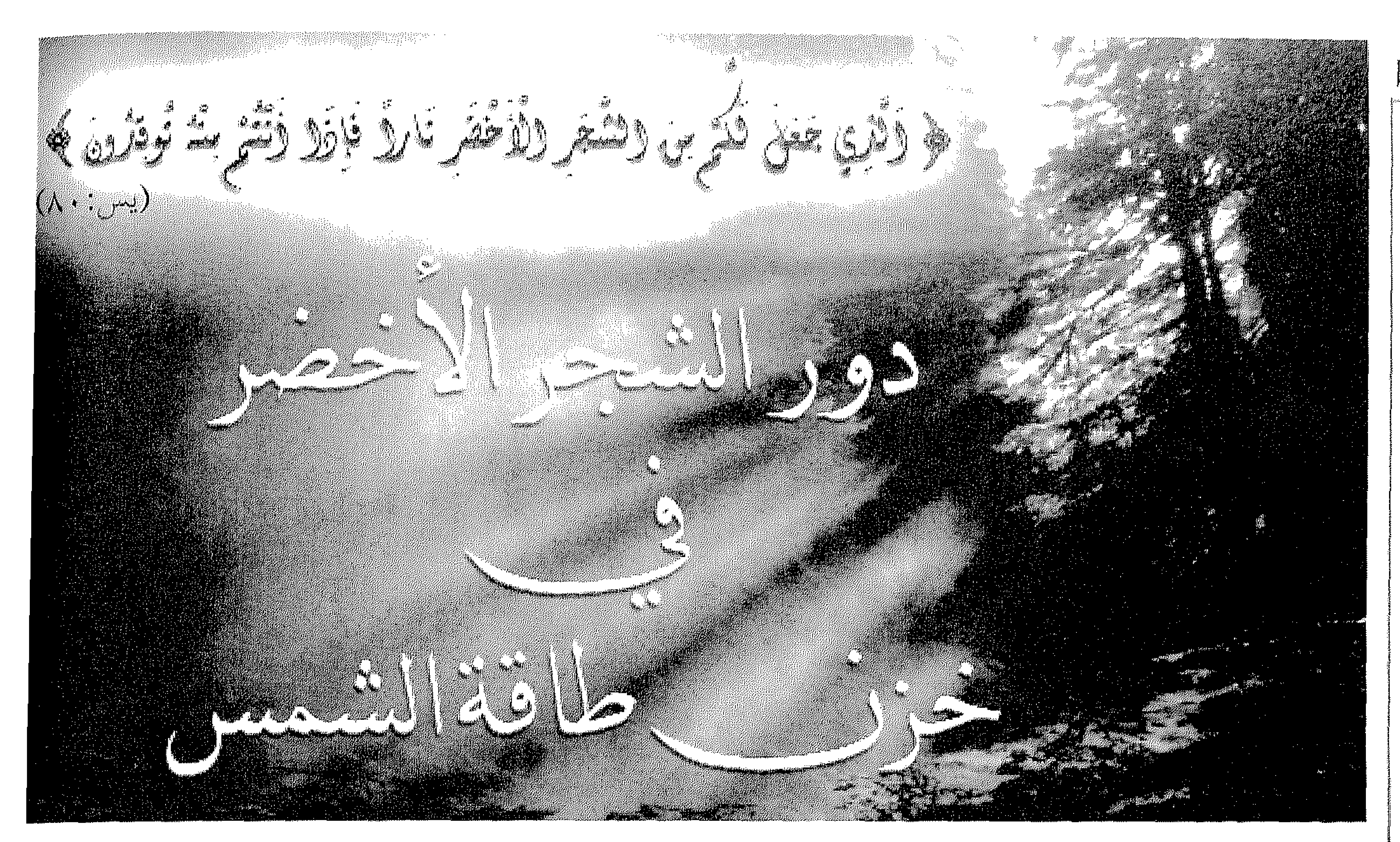
ما أعظمه من سَحَرٍ مباركٍ ووطيدٍ،
مشحونٍ بالمشاعر...
ورجال ونساءٌ وولدان،
قلوبهم طافحة في كل مكان...
كلهم يُنصتون لرياح الذكريات المجيدة هذه،
لمدافع «جالديران»، بعد مدافع «موهاج».
من أين هذه النداءات التي تملأ السماء بدَوِيّ المدافع؟
لا بد أن كل نداء يعلو من نصرٍ وظفر...
من «كوسوفا» و«نيغبولي» و«وارنة» و«إستانبول»...
كلُ نداء يتذكر في هياب وقعة من الوقائع...
من «بلغراد» و«بودين» و«اكري» و«ايوار»...
من سلاسل الجبال الشاهقة على الحدود الأخيرة!
ومن أين تنادي أصوات المدافع في آفاق البحار ؟
أهو «بربروس» يعود بأسطوله من حملة ؟
أَمِنَ «الجزر» ؟ أم من «تونس» ؟ أم من «الجزائر» ؟!
عادت مِئَتا سفينة من الآفاق الحرة...
من حيث هَلّ الهلال، من حيث يُحَدِّقُون!
من أيّ سَحَرٍ جاءت هذه السفن المباركة؟

* * *

لقد انصهرتُ في هذا المسجد العظيم بوحدة الوطن،
فحمداً لله، إذ رأيت في هذه الساعة،
تلك الأرواح التي تعايش أبدان الأحياء،
فقلبي طافح بالأنوار صباح هذا العيد...

---

*) من كبار شعراء وأدباء تركيا، توفي سنة ١٩٥٨م.
الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو.
* القصيدة ذات عروض شعرية في الأصل وليست من الشعر الحرّ.



د. زغلول النجار *

الآيات السبع من خواتيم سورة يس تستدل على قدرة الله تعالى في الخلق بتلك القدرة المذهلة التي وضعها في الشجر الأخضر ومكنه من استخدام طاقة الشمس في تثبيت ذرات الكربون الموجودة في غاز ثاني أكسيد الكربون المكون للغلاف الغازي للأرض على هيئة مركبات عضوية تكوّن أهم مصادر الوقود على الأرض، حتى يمكن لكل من الإنسان والحيوان الاستفادة بها. واستخدمت الآيات هذا المثل في الاستدلال أيضا على أن الله تعالى الذي خلق هذا الكون قادر على إفنائه وعلى إعادة خلقه من جديد (أي بعثه). وفي ذلك تقول الآيات في ختام سورة يس: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (يس:٧٧-٨٣).

حقيقة علمية مبهرة

وهذه الآيات المباركات تشير إلى حقيقة علمية مبهرة، وواحدة من أهم العمليات الحيوية الأساسية، ألا وهي عملية البناء الحيوي التي يقوم بها النبات الأخضر والتي عرفت باسم عملية «التمثيل الضَّوئي» أو «عملية البناء الضوئي».

والنباتات الخضراء قد خصها الخالق سبحانه وتعالى بصبغ اليخضور (الكلوروفيل) الملوّن لأوراق وأنسجة النباتات ذاتية الاغتذاء باللون الأخضر؛ وأعطى هذا الصبغ وغيره من الأصباغ النباتية القدرة على اصطياد وتخزين جزء من طاقة الشمس التي تصل إلى الأرض، وهي طاقة كهرومغناطيسية تتركب من موجات ذات أطوال متعددة تتحرك من أشعة جاما، إلى الأشعة السينية، إلى الأشعة فوق البنفسجية، إلى الأطياف المرئية (أو أطياف النور الأبيض)، إلى الأشعة تحت الحمراء، إلى المَوجات الراديوية بمختلف أطوالها.

وهناك ثمانية أنواع من هذه الأصباغ الخضراء التي تشبه في تركيبها الكيميائي جزيء الهيموجلوبين (الذي يعطي لدم الإنسان ولدماء كثير من الحيوانات لونها الأحمر القاني) تماما، فيما عدا استبدال ذرة الحديد المركزية في جزيء «الهيموجلوبين» بذرة مغنيسيوم في جزيء اليخضور؛ ويشير ذلك إلى وحدة البناء كما يشير إلى وحدة الباني سبحانه وتعالى.

وتوجد الأصباغ الخضراء مادة الكلوروفيل في داخل جسَيمات دقيقة للغاية تعرف باسم البلاستيدات، ويوجد منها ثلاثة أنواع مميزة هي الخضراء والملونة بألوان أخرى والبيضاء.

ويبدأ تكون كل منها من أجزاء أبسط وأدق كثيرا في الحجم تعرف باسم «البلاستيدات الأولية».

و«البلاستيدات» هي جسيمات متناهية الضآلة في الحجم توجد في داخل الخلايا العمادية الطولية العمودية على جدار الأوراق النباتية، ولها حرية التحرك داخل الخلية لزيادة قدرتها على اصطياد أشعّة الشمس من أية زاوية تسقط بها على ورقة الشجر. والبلاستيدات جُسَيمات بوَيضية الشكل عادة، يحاط كل منها بغِشاءَين رقيقين، الخارجي منهما أملس، والداخلي متعرج على هيئة ثنيات داخلية تفصلها صفائح رقيقة جداً؛ وتحتوي الثنيات على الأصباغ الخضراء، بينما تفتقر إليها الصفائح الفاصلة بينها، وتحتوي البلاستيدات بالإضافة إلى الأصباغ النباتية على العديد من الأحماض الأمينية، والمركبات البروتينية الأخرى كالدهون المفسفرة وغيرها.

ويقوم الصبغ الأخضر (اليخضور) في هذه «البلاستيدات» بالتقاط الطاقة القادمة من الشمس واستخدامها في تأيين الماء إلى «الأوكسيجين» الذي ينطلق عبر ثغور ورقة النبات إلى الغلاف الغازي للأرض، و«الإيدروجين» الذي يتفاعل مع غاز ثاني أكسيد الكربون الذي يأخذه النبات من الجو لتكوين السكريات والنشويات وغيرهما من الكربوهيدرات؛ وغاز ثاني أكسيد الكربون الموجود في الغلاف الغازي للأرض لا تكاد نسبته تتعدي ٠٫٣٪.

عملية التركيب الضوئي

وتتم عملية البناء الضَّوئي التي تقوم بها النباتات الخضراء على مرحلتين؛ الأولى منهما تحدث في الضوء، والثانية تحدث في الظلام. والمرحلة الضوئية يتم فيها تأيين الماء إلى مكوناته من الأوكسيجين، ونوى ذرات الإيدروجين، وأعداد من الإليكترونات، وينطلق غاز الأوكسيجين فيها إلى الجو. وتستخدم كل من نوى ذرات الإيدروجين والإليكترونات الطليقة في المرحلة الثانية التي تتم في الظلام والتي من نتائجها تحويل غاز ثاني أكسيد الكربون إلى السكّريات والنشويات وغير ذلك من المواد الكربوهيدراتية. وعلى العكس من ذلك فإذا أحرق السكر أو أية مواد كربوهيدراتية في وجود الأوكسيجين فإنه يتحول إلى ثاني أكسيد الكربون والماء، وتنطلق الطاقة، وكأن عملية التمثيل الضَّوئي هي عملية تكوين السكر بخلط ستة جزيئات من الماء مع ستة جزيئات من ثاني أكسيد الكربون في وجود الطاقة الشمسية ومادة اليخضور، فينتج عن ذلك جزيء واحد من السكر وستة جزيئات من الأوكسجين.

وكما يأخذ النبات من طاقة الشمس بالقدر اللازم لنموه، فيحوّل تلك الطاقة الضوئية الحرارية إلى عدد من الروابط الكيميائية بتفاعلها مع كل من الماء وثاني أكسيد الكربون فيكون مختلف المواد الكربوهيدراتية (أي المكونة من الكربون والإيدروجين) التي يستخدمها النبات في بناء مختلف خلاياه وأنسجته، ويختزن الفائض عن حاجته على هيئة النشويات البسيطة والمركبة، والسكريات المتنوعة؛ فإن النبات يأخذ كذلك العديد من عناصر الأرض والماء الصاعدين مع العصارة الغذائية التي يمتصها النبات من التربة بواسطة جذوره، وتنتقل هذه العصارة الغذائية إلى كل من الساق والفروع والأوراق عبر أوعية خاصة تعرف باسم الأوعية الخشبية التي تمتد في كل ورقة من أوراق النبات على هيئة عرق وسطي له تفرعاته العديدة التي تنقل تلك العصارة الغذائية إلى كل خلايا الورقة الخضراء، حيث يعاد تشكيلها على هيئة العديد من المركبات العضوية التي يحتاجها النبات؛ وتعود المركبات المصنعة في الأوراق الخضراء عبر أوعية خاصة تعرف باسم أوعية اللحاء لتقوم بتوزيعها على جميع خلايا وأنسجة النبات حسب احتياج كل واحد منها.

ومن المركّبات العضوية التي تنتجها النباتات الخضراء البروتينات من مثل الزيوت والدهون النباتية، والأحماض الأمينية، والإنزيمات، والهرمونات، والفيتامينات التي تسهم في بناء مختلف الخلايا والأنسجة المتخصصة من مثل الألياف والأخشاب والزهور والثمار والبذور، والإفرازات النباتية المتعددة كالمواد الصمغية والراتنجية وغيرها.

وباستمرار عملية التمثيل الضوئي تركز بلايين البلايين من ذرات الكربون المكونة لثاني أكسيد الكربون الجوي في داخل خلايا النباتات الخضراء خاصة الأوراق. وبذلك فإننا نجد أن وزن المادة الحية النباتية في تزايد مستمر. ولما كان كل من الإنسان وأعداد من الأنواع في مملكة الحيوان يتغذي على المواد



النباتية ومنتجاتها، ويستخدم تلك الطاقة الكيميائية المختزنة فيها في تكوين مركبات كيميائية أخرى تختزن أجزاء من تلك الطاقة، وتحول أجزاء منها إلى طاقة حرارية وحركية وكهربائية؛ ولما كان كل من الإنسان وبعض أنواع الحيوان يأكل كلا من النبات والحيوان، فإن جزءً من طاقة الشمس ينتقل إلى هؤلاء الآكلين، وبذلك يزداد كم المادة الحية بتكرار تلك العمليات الحياتية والتي يلعب النبات الأخضر فيها دورا أساسيا، ويصل معدل الإنتاج السنوي من المواد العضوية النباتية إلى أكثر من أربعة آلاف تريليون طنّ.

وتقوم النباتات الخضراء بتثبيت أربعمائة مليار طن من الكربون المستخلص من غاز ثاني أكسيد الكربون الجوي في أجساد النباتات سنويا في المتوسط. وقد لعبت هذه العملية دورا مهما في تكوين بلايين الأطنان من الفحم الحجري عبر تاريخ الأرض الطويل خاصة في صخور العصر الفحمي (الكربوني).

والمنتجات النباتية هي مصدر الطاقة الحيوية في أجساد بني الإنسان وفي أجساد الحيوانات من آكلات الأعشاب. ومن فضلات كل من النبات والحيوان والإنسان تتكون جميع أنواع المحروقات، وذلك بعد تجفيفها أو دفنها وتحللها بمعزل عن الهواء.

فالمادة العضوية في كل من النبات والحيوان والإنسان تتكون أصلا من عناصر الأرض الأساسية، والماء والأوكسجين، والنيتروجين، وثاني أكسيد الكربون.

والنبات الأخضر بعملية التمثيل الضوئي يعطي الأوكسجين لكل من الإنسان والحيوان يبثه في جو الأرض، ويأخذ منهما ثاني أكسيد الكربون الذي يبثّانه إلى جوّ الأرض، وكل من النبات والحيوان يعطي الإنسان الغذاء والطاقة ويأخذ منه فضلاته.

الدورة في الطبيعة ومساهمة النباتات فيها

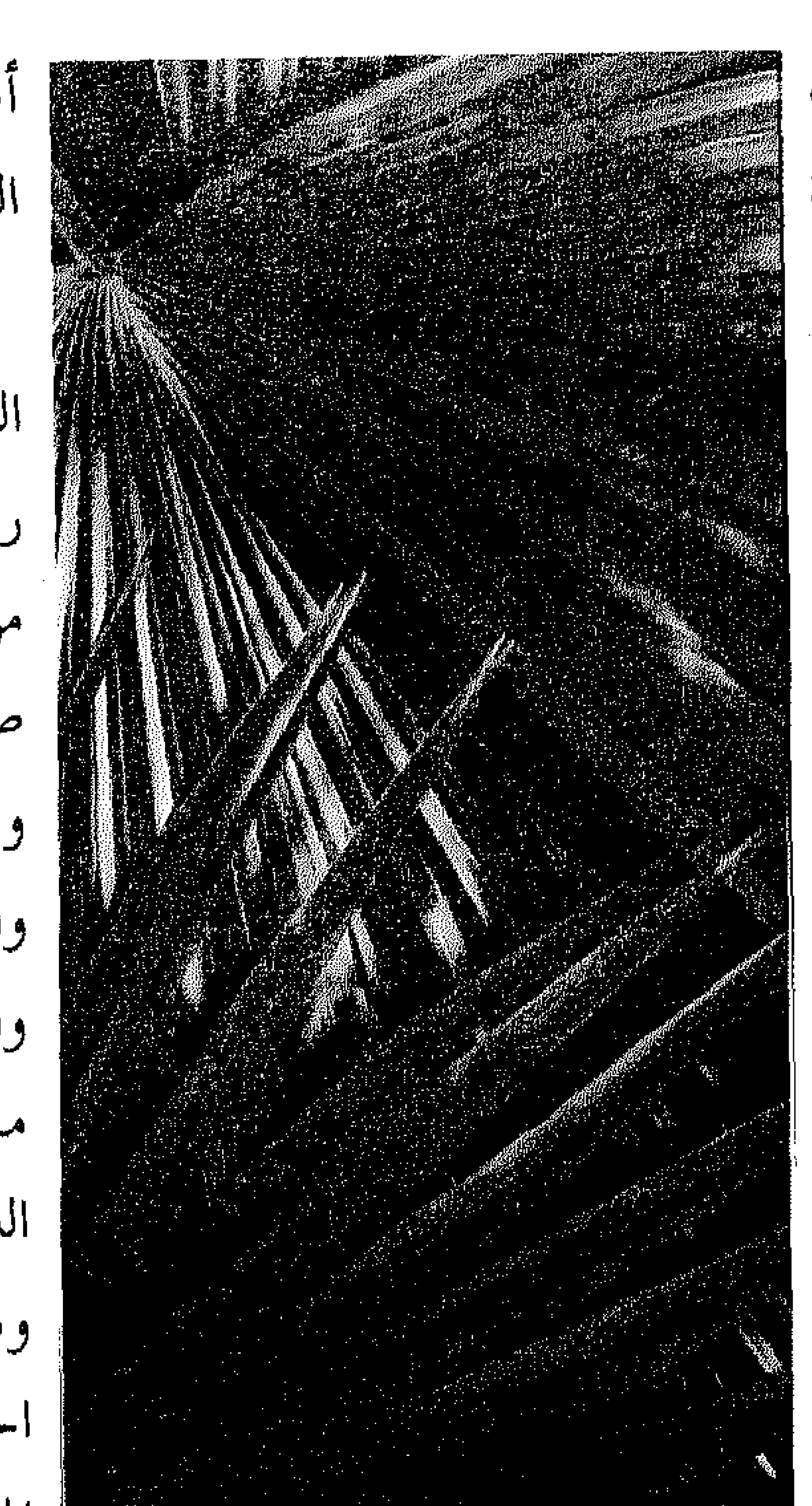
والأرض تعطي كل صور الحياة مختلف العناصر التي تحتاجها، والماءَ الذي يعين على إتمام كل العمليات الحيوية. والشمس تعطي كل هذه الصور الحياتية –من نباتية وحيوانية وبَشرية– كلّ صور الطاقة التي تحتاجها، والله يهب ذلك كله من فضله وكرمه وجوده ومنّه وعطائه وبديع صنعه وعظيم حكمته. فمركبات اليخضور تختزن الطاقة في خلايا الشجر الأخضر، ويقابلها في الخلايا الحيوانية جسيمات الميتوكوندريا التي تستهلك الطاقة المأخوذة من أي من النبات أو الحيوان أو منهما معا.

وعند جفاف الشجر الأخضر وغيره من النباتات الخضراء فإنها تتحول إلى أغلب مصادر الطاقة الطبيعية تقريبا ماعدا الطاقة النووية، وطاقة الرياح، وطاقة المدّ والجزر، والحرارة الأرضية، والطاقة الشمسية المباشرة. والطاقة في الشجر الأخضر أصلها من طاقة الشمس. فعند جفاف النباتات الخضراء تتحول بقاياها إلى الحطب أو القش، أو التِّبن، أو الخشب، أو الفحم النباتي إذا أحرق ذلك بواسطة الإنسان في معزل عن الهواء.

وإذا دفنت البقايا النباتية في البحيرات الداخلية أو في دالات الأنهار أو في الشواطئ الضحلة للبحار دفنا طبيعيا فإنها تتفحم بمعزل عن الهواء متحولة إلى الفحم الحجري. وإذا زاد الضغط والحرارة على الفحم الحجري في باطن قشرة الأرض فإنه يتحول إلى غاز الفحم الطبيعي.

وعندما تتغذى الحيوانات

البحرية، خاصة الدقيقة منها، على النباتات الدقيقة أو على فتات النباتات الكبيرة ومنتجاتها الدقيقة فإن طاقة الشمس المختزنة في تلك النباتات وفتاتها،تتحول في أجساد الحيوانات إلى مواد بروتينية من الزيوت والدهون الحيوانية التي تتحلل بمعزل عن الهواء إلى النفط والغاز الطبيعي المصاحب له. وكلما زادت الحرارة والضغط على النفط المخزون في قلب قشرة الأرض تحول بالكامل إلى الغاز الطبيعي. وكل هذه المواد من مصادر الوقود الذي يحرق طلبا للطاقة الحرارية الكامنة فيه، فيتحد أوكسجين الجو مع الكربون المتجمع في تلك المصادر من مصادر الوقود محولا إياه إلى غاز ثاني أكسيد الكربون الذي ينطلق عائدا مرة أخرى إلى الغلاف الغازي للأرض.



أصلا من الغلاف الغازي للأرض بواسطة النباتات الخضراء.

مما سبق يتضح المضمون العلمي للآية الكريمة التي فهمها أهل البادية على عهد رسول الله ﷺ بالخشب أو الحطب، أو بكل من المرخ والعفار؛ ونفهمها اليوم في إطار كل صور الطاقة ذات الأصل العضوي من النفط والغاز المصاحب له، إلى الفحم الحجري والغازات المصاحبة له، إلى الفحم النباتي، والخشب والحطب والقش والتبن وغير ذلك من الفضلات النباتية والحيوانية التي يلعب الدور الرئيسي في تكوينها الشجر الأخضر وما وهبه الله تعالى من قدرة فائقة على احتباس جزء من طاقة الشمس يعينه على تأيين الماء، ثم اقتناص ذرات الكربون من غاز ثاني أكسيد الكربون الموجود بنسب ضئيلة جدًا في الغلاف الغازي للأرض لا تتعدي ٣٠٪، وذلك بواسطة أيون الإيدروجين الناتج عن تحلل الماء، وإطلاق الأوكسجين إلى الغلاف الغازي للأرض، وكأن حركة الطاقة على الأرض، أو بالأحرى حركة الحياة تتلخص في تبادل ذرة الكربون بين النبات والحيوان والإنسان؛ يأخذها النبات من الغلاف الغازي للأرض بعملية التمثيل الضوئي ويهبها لكل من الإنسان والحيوان والأرض، ثم يطلقها كل من الإنسان والحيوان إلى الغلاف الغازي للأرض بعملية التنفس. وبين العمليتين يختزن لنا ربُّنا عز وجل كمًا هائلا من مختلف مصادر الطاقة تختزن فيه ذرات الكربون التي أخذها الشجر الأخضر من الجو وأعطاها للأرض إما مباشرة أو عن طريق راقات هائلة من الفحم أو مخزونا ضخما من النفط والغاز حتى يحرقه الإنسان فيرده مرة أخري إلى الغلاف الغازي للأرض.

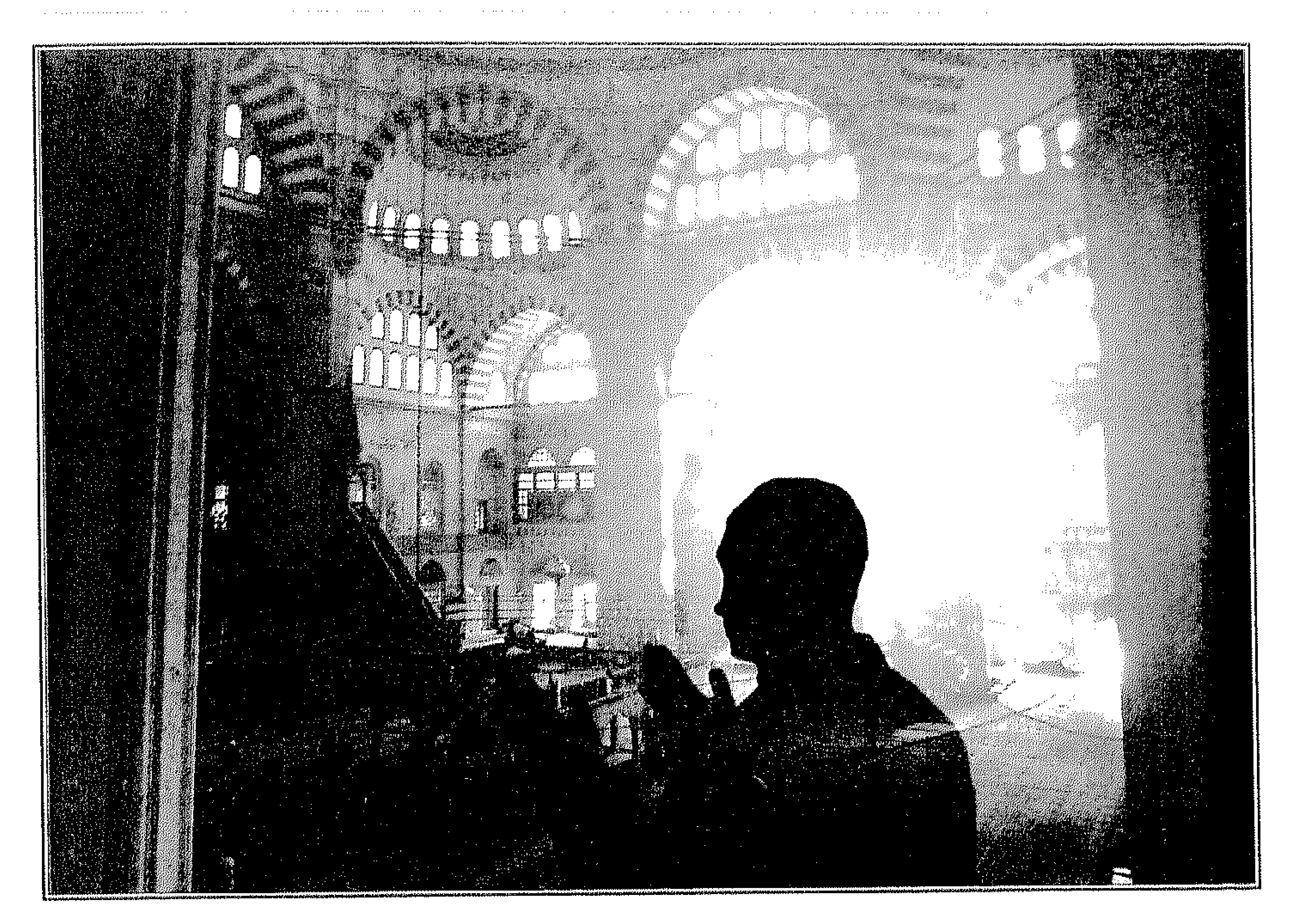
وبذلك فإن الطاقة التي استمدها الشجر الأخضر من أشعة الشمس الواصلة إلى كوكب الأرض، فانتزع بها ذرة الكربون من جزيئات ثاني أكسيد الكربون الموجود في الغلاف الغازي للأرض، هي نفس الطاقة التي تنطلق على هيئة اللهب الحار الناتج عن احتراق أي من مصادر الطاقة تلك في أوكسجين الغلاف الغازي للأرض (من مثل الخشب، أو الحطب، أو القش أو التبن أو الفحم النباتي أو الحجري أو الغاز الفحمي أو النفط أو الغاز الطبيعي، أو غاز الميثين الناتج عن تحلل الفضلات بصفة عامة) وبذلك تتحد ذرات الكربون المختزنة في تلك المصادر المتعددة للطاقة بذرات الأوكسجين الموجودة في الغلاف الغازي للأرض لتعود إليه على هيئة جزيئات ثاني أكسيد الكربون مرة أخرى وتنطلق الطاقة.

وعلى ذلك فإن عمليات الاحتراق على سطح الأرض هي عمليات أكسدة لذرات الكربون المختزنة في المواد العضوية بمختلف أشكال الوقود لتعود مرة أخرى على هيئة ثاني أكسيد الكربون الجوي كما كانت في أول الأمر؛ وهي تشبه عملية التنفس في كل من الإنسان والحيوان، حيث يستفاد بالأوكسجين الموجود في الغلاف الغازي للأرض في أكسدة ذرات الكربون الموجودة في المواد الغذائية لتتحول إلى ثاني أكسيد الكربون الذي انتزع

فسبحان القائل: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ (يس: ٨٠)، والقائل: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (الواقعة: ٧١ – ٧٤). ■

*) أستاذ علم الأرض – مصر.

الأبعاد الروحية للصحوة الإسلامية المعاصرة



د. هدى درويش *

١ . البعد التصوفي

التصوف هو العلم القائم على النهج القرآني والاستنان بالسنة المحمدية، وهو أشرف العلوم وأرقاها، وهو التاج الذي تتزين به رؤوس رجاله أهل التقى السالكين إلى الله بقلوب مطمئنة ونفوس راضية مرضية وأفئدة سامية مدركة للحقيقة الإلهية.

وأهل التصوف هم المجتمعة على الله هممهم الذين ليس في بواطنهم لعباد الله إلا الشفقة والرحمة، الذين لا يطلبون لأنفسهم إلا ما كتب الله لها، الذين نقوا أخلاقهم حتى ذهبت عن الباطل إلى الحق، الذين يحثون الخلق على طاعة الله ويذكرون نعمه ويشكرونه كثيرا؛ هم الهينون، اللينون، المتسامحون، العافون عند المقدرة، أعزة الأنفس، المتذللون الخاضعون لله، المتعبدون، المتبتلون، أصحاب الهمم والعزيمة والإصرار والمشاعر الرقيقة والعواطف الشفيقة، المحقون الحق الرافضون للباطل، المؤتنسون بالله.

ويشهد التاريخ أن رجال التصوف هم الذين حملوا مشاعل التبليغ والإرشاد والدعوة إلى الإسلام باللين والمعاملة الحسنة والموعظة الخالصة، هم الذين صدقوا وأخلصوا فاستطاعوا بهممهم العالية تبليغ الإسلام إلى بقاع الأرض؛ وشاهد على ذلك منطقة آسيا الوسطى والتى كان يطلق عليها بلاد «ماوراء النهر» التى دخلها الإسلام بفضل رجال التصوف الذين دخلوا إليها واختلطوا بأهلها ونشروا الإسلام بالمعاملة اللينة والأسلوب المقنع، وكان أهل هذه البلاد من أشد المتعصبين للديانات السابقة.

كذلك تاريخ المغول الذين دخلت قبائلهم الإسلام الواحدة تلو الأخرى بفضل هداية رجال التصوف لأمرائهم حتى وصلوا إلى الصين، وواصلوا جهادهم فى نشر الإسلام في العصر الحديث عندما وقعت المنطقة في قبضة الروس، فاستطاعوا حماية المنطقة من الخطر الشيوعى. وتشهد الكتابات الروسية على الدور الرئيسي الذي قام به المتصوفة فى المنطقة.

ولن تكفي السطور والكتابات في حصر الأدوار التي قام بها رجال التصوف في أداء مهام رسالة الإسلام من مؤسسي الطرق ومريديها مثل الطريقة النقشبندية والقادرية والشاذلية واليَسَويّة وغيرها الذين كانت تكاياهم رمزا للنشاط والحركة تفتح أبوابها

لإيواء المجاهدين وإطعامهم ولقيامهم بحماية البلاد من المخاطر الخارجية، إلى جانب دورهم في إصلاح البلاد والقضاء على أي ثورات داخلية. وكان مصدرهم جميعًا واحدًا هو: العمل بكلام الله تعالى والسير على النهج النبوي الشريف، فأقاموا الدين وحفظوه من كل باغ وعاد.

والتصوف من حيث سلوكه هو التأدب بالخلق الإلهي، وهو التعامل السامي مع الإنسانية بمفهومها الواسع الشامل الذي لا يحده دين ولا زمان ولا مكان، وهو التوجه بقلب سليم إلى طاعة الله، وهو التسامح ونبذ العداء والكراهية، وهو الحب بأوسع معانيه لبني الإنسانية. والتصوف حركة دائبة لا تعرف الخمول أو الكسل، وهو العمل والنشاط والتفاعل والاندماج في الكيان الإنساني وهو البذل والعطاء والإيثار.

هذا السلوك الصوفي وهذا الفكر وهذا التوجه الذي نجد معانيه واضحة في رجاله هو ما نطلبه في وقتنا الراهن للبرهان على عظمة الإسلام وعالميته أمام الكافة.

٢. الهوية الدينية ومواجهة التحديات

إن الحفاظ على الهوية الدينية للأمة الإسلامية ومسايرة التحولات العالمية يتطلب من أبنائها العمل الجاد المتواصل لمواجهة التحديات التي يعانيها المسلمون في العالم ودرء الاتهامات التي تصوب نحو الإسلام. هذه التحديات لها وجهان أساسيان يتمثلان في العالم الخارجي الغربي وآخر داخلي، ويتمثل في بعض المسلمين الذين فهموا الإسلام فهما خاطئًا فأساءوا إليه دون أن يشعروا نتيجة لاختلاف طبائعهم ودرجة تدينهم؛ فمنهم المتشدد والمتعصب ومنهم الوسط المعتدل، ومنهم اللين المتسامح المعطاء. فيتطلب من هؤلاء المسلمين التوحد على قلب رجل واحد ضد كل المفاهيم المغلوطة عن الإسلام.

فما يعانيه المسلمون من الغرب هو عدم فهمهم الصحيح للمبادئ والقيم التي يرتكز عليها الإسلام. فالتشدد والعنف والقتل والتعصب والكراهية والحقد وغيرها التي يلحقها الغرب بالإسلام من خلال كلمة واحدة وهي الإرهاب صفات يمقتها الإسلام ولا يقبلها. فالإرهاب لا دين له ولا وطن ولا علاقة له بالإسلام.

كذلك تأويل كُتّاب الغرب لآيات القرآن الكريم بشكل يرضي أهدافهم، فيفسرون قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾(الأنفال: ٦٠) أنها تتضمن معاني استخدام الحرب والإرهاب بينما هي تعني الدعوة للاستعداد والتأهب الدائم لمنع أي اعتداء أو اغتصاب على الأرض، فتنعم البلاد جميعا بالحصانة والحماية والأمان ضد العدوان. ولكل بلد حقها في الدفاع عن أرضها وممتلكاتها وسلامها وأمانها في وطنها.

الإعلام الغربي وتشويه الإسلام

ويتخذ الغرب من وسائل الاتصال والإعلام المختلفة وسيلة هامة لترويج الأفكار المغلوطة عن الإسلام على كافة المستويات سواء الفكرية – التي يغزو بها عقول الشباب عن طريق نشر مفاهيم سياسية ودينية واقتصادية وأفكار غريبة تتبع أهدافهم في تشويه صورة الإسلام وبلبلة العقول غير الواعية لمبادئ الإسلام ومفاهيمه – أو الأخلاقية في محاولة لشغلهم بمواد تخرجهم عن دائرة الأخلاقيات الإسلامية، فتأخذ عقولهم وقلوبهم في مسائل لا يرضى عنها الله ورسوله بدعوى التمدن والتحضر.

كما يسخّر الغرب كل وسائله في تشويه التاريخ الإسلامي منذ عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين، واستغلال الاختلافات الشكلية بين الفرق الإسلامية في خدمة أغراضهم، بالإضافة إلى تدخلاتهم في حرية المرأة المسلمة واتهامها بالسلبية والتأخر.

تلك العقبات والتحديات يجب على العالم الإسلامي التيقظ لها فيقف قلبا وقالبا في وحدة واحدة، بهدف واحد، يؤدي دورا حيويا في إيقاظ الوعي الصحيح بالإسلام.

مقترحات من أجل الفهم الصحيح للإسلام

ومن أهم الوسائل لتوصيل المفاهيم الصحيحة للإسلام هي:

- توحيد كلمة العالم الإسلامي بمساعدة أجهزة كل دولة إسلامية في العمل على الرد على الادعاءات المضادة للإسلام عن طريق الأجهزة الإعلامية بأساليب حديثة متطورة تظهر الأخلاقيات الإسلامية السمحة والفضائل والقيم التي يدعو إليها الإسلام.

- التشجيع على تأسيس وحدة اقتصادية للعالم الإسلامي لمواكبة التكتلات الاقتصادية العالمية.

- بث قنوات وإذاعات ومواقع إلكترونية تشرح أسس الإسلام، وتوضح صحة المفاهيم المغلوطة لأمم العالم، وتظهر عظمة الإسلام في اعترافه بالأديان ومعاملته السمحة مع مختلف الديانات.

■ إقامة المؤتمرات والندوات التي يشترك فيها الدعاة المثقفون القادرون على التحدث بلغة الآخر بطلاقة والمتمكنين من الرد على الاستفسارات المتعلقة بالقضايا التي يختلط فهمها على الغير.

■ العمل على نشر الكتب والأبحاث المبسطة والمترجمة التي تنشر الوعي الصحيح بالإسلام، وتظهر روح الإسلام وجوهره ودعوته إلى السلام، وتشرح بأسلوب واضح الفضائل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلمية التي يحث عليها الإسلام.

■ إبراز دور المرأة المسلمة العملي والإيجابي في مختلف مجالات العمل والحياة مع احتفاظها بأخلاقيتها وسلوكها القويم وعدم تبرجها، وتلك السلوكيات للمرأة تنادى بها كافة الأديان.

■ أهمية بروز دعاة على مستوى عال من الهمة والمسئولية في حمل الأمانة فى تبليغ الدعوة بالمنطق الواعى والحجج والبراهين القوية الثابتة، يسايرون روح العصر، وعلى مستوى عال من الثقافة الدينية المتفهمة لكافة الأديان يتحدثون بلغتهم بأسلوب هادئ وواضح لا يدخل فيه التعصب أو التحيز.

دعاة غير تقليديين

والواجب على هؤلاء الدعاة أن يكونوا دعاة غير تقيلديين يحملون للعالم الفكر الإسلامي في ثوب عصري، يتعامل مع الآخر بثقافة عالية، ويقدم الأدلة والبراهين بروح عصرية جديدة، فيصبحوا سفراء للإسلام يؤثرون بكلمتهم ومنطقهم الراجح وعقليتهم الناضجة.

ومهمة هؤلاء الدعاة هو إبراز جوهر الإسلام العالمي الذي يؤمن بالرسالات السماوية جميعا. وذلك بإبراز مبدأ التسامح الإسلامي مع الأديان والبرهنة عليه ببعض الأحداث الإسلامية، ومنها معاملة رسول الله ﷺ لليهود؛ ومثال ذلك نجده في مسألة اليهودى الذي كان يضع الأقذار أمام بيت رسول الله ﷺ كل يوم، وعندما لم يجد الرسول الأقذار أمام بيته كالمعتاد سأل عنه فعلم أنه مريض، فعاده الرسول ليطمئن عليه.

كذلك قصة اليهودي الذي أساء إلى رسول الله ﷺ لأخذ دين عليه فقام عمر بن الخطاب بمنعه عن رسول الله بشدة، فعاتبه الرسول وأمر أن يدفع لليهودي أكثر مما له من دين تعويضًا عن ترويع عمر بن الخطاب له.

كذلك كانت معاملة الرسول ﷺ للنصارى، ويظهر ذلك من خلال رسالة الرسول الكريم إلى النصارى والتي أشهد عليها صحابته وكتبت في اليوم الثالث من المحرم في السنة الثانية من الهجرة وهذه الرسالة ورد فيها:

«متى كان راهب أو سائح مجتمعا في جبل أو واد أو مغارة أو معمور أو سهل أو كنيسة أو معبد فنحن من ورائهم وهم في ذمتنا. فلا يسلب أحد سياحهم، ولا يهدم بيتا من بيوت كنائسهم، ولا يتلفه، ولا يدخل شيئا منه إلى بيوت المسلمين... وإني أحفظ ذمتهم في البر والبحر والمشرق والمغرب والشمال والجنوب أينما كانوا. وهم في ذمتي وميثاق أماني من جميع ما يكرهون». كما ورد عنه ﷺ في هذه الرسالة قوله: «لا يكلفهم أحد بسفر، أو يلزمهم بحرب أو نقل سلاح، إنما المسلمون يحاربون عنهم ولا يجادلونهم إلا على أحسن وجه، فيعيشوا مرحومين، ويمنع عنهم ما يكدرهم أو يضيق عليهم أينما كانوا، وتحترم كنائسهم فلا يمنعون من تعميرها أو ترميمها، ولا أحد من الأمة يخالف هذا العهد إلى يوم القيامة».

تلك هي معاملة رسول الله ﷺ لليهود والنصارى، ولنا في رسولنا أسوة حسنة.

الدولة العثمانية وروح التسامح

ومن مظاهر السماحة الإسلامية التى سارت على النهج القرآني والسنة النبوية الشريفة معاملة الدولة العثمانية لأهل



الديانات. تلك الدولة التى وصلت بالإسلام إلى مشارف فيينا في أوربا، كيف كانت معاملتها مع أهل الكتاب من نصارى وكاثوليك وأرثوذكس ويهود وغيرهم بسماحة وعدل لم يسبق مثيلها لأي دولة أخرى القيام به بشهادة الغرب والكتاب والمؤرخين الغربيين.

ومثال على ذلك السلطان محمد الفاتح الذى أدهش العالم الغربي بمعاملته واحترامه لأهل الديانات غير المسلمة بالعدل والرحمة والإكرام. إنها السماحة التي ضربت الأمثلة في كيفية معاملة الإسلام للأديان الأخرى.

■ تشجيع مراكز البحوث في العالم الإسلامي على نشر الكتابات التي تشرح أخلاقيات الإسلام مع عامة البشر، وسرد معاملة الرسول الكريم مع أهل الملل الأخرى، وصفاته الحميدة في معاشرته لأهله وأصحابه والناس جميعا، وعظيم تسامحه في معاملة الآخر.

■ قيام المفسرين والعلماء المسلمين والهيئات العلمية الإسلامية بإفراد مؤلفات خاصة تشرح الآيات القرآنية والسنة النبوية والأحداث الإسلامية التي حاول الغرب تشويه مفهومها وتلك التي تتحدث عن القيم الإنسانية النبيلة في الإسلام.

■ العمل على إشاعة الحب بين البشر، فرسالة الإسلام هي الحب والسلام.

■ نشر التاريخ الإسلامي الصحيح وحياة الرسول ﷺ وأقواله وأفعاله وأحواله وسير الصحابة الأجلاء والتابعين والسلف الصالح وسير علماء الإسلام الذين لهم إسهاماتهم في الدعوة الصحيحة.

■ الاقتداء بأفعال وأحوال ومعاملات أهل الطرق الصحيحة الواعية الذين يهبون حياتهم للعلم والعمل؛ وهم على اختلاف مسمياتهم مصدرهم واحد وثابت، فالكل من رسول الله ملتمس، وطريقهم القرآن يسيرون مع الله وبالله ولله.

تلك هي بعض الوسائل التي يمكن اتخاذها من أجل توضيح مبادئ وأخلاقيات الإسلام الشامل العالمي.

رسالة الإسلام العالمية

وعلى الرغم من محاولات الكثير من الدعاة والرجال الذين حملوا على عاتقهم هموم العالم الإسلامي، إلا أنه لا يزال التقصير سائدا في عدم تبليغ الإسلام بمفهومه السليم إلى العالم أجمع؛ ولا يزال كثير من الشعوب لم يصل إليها مفهوم الإسلام الصحيح على الرغم من أخذ العهد على كافة المسلمين من رسول الله ﷺ بتبليغ رسالة الإسلام، قال تعالى في سورة التوبة: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾(التوبة: ٦).

إن تبليغ رسالة الإسلام العالمية لمهمة عظمى تقع على عاتق حاملي رايات النهضة والتنوير التي يغفل عنها الكثير. وقد قام كثيرون منهم على مدار التاريخ في إظهار عزة الإسلام مثل «الإمام شامل» الذي استطاع أن يضرب لنا مثال القائد الصوفي الذي قهر الروس وقت احتلالهم للشيشان، والإمام المجاهد «نصر الله الطرازي التركستاني» الذي استطاع بكتاباته وقلمه إظهار الدعوة الإسلامية الحقة.

والعالم الإسلامي الآن في حاجة ماسة إلى الدعاة المجددين لنشر الفكر الإسلامي الصحيح وتعميمه. ولا ننسى في هذا المضمار الأعمال الجليلة التي قدمها رجال الدعوة الإسلامية المجددون أمثال الإمام «سعيد النورسي» والإمام «سليمان حلمي»، ودعوة الإمام المجدد «فتح الله كولن» التي تعد نموذجًا للدعوة الإسلامية التجديدية المعاصرة.

والإسلام في حاجة لإبراز دور المتصوفة على مدار التاريخ وإزاحة كل ما يشوب التصوف من بدع أو انحراف أو اتهام بالخنوع أو الخضوع أو التراخي؛ فالتصوف الصحيح هو سلوك أخلاقي حركي فعّالي وصحيح إلى طريق الله؛ وعبر التاريخ أثبت التصوف الدور الإيجابي في الحفاظ على الهوية الإسلامية. ■

---

*) جامعة الزقازيق، معهد الدراسات الآسيوية – مصر.

المصادر:

- السيد محمود أبو الفيض، نهضة الإسلام، مطبعة حجازي، القاهرة/ ١٩٤٩م.
- هدى درويش، بحث دور جامعة المستقبل في توجيه خطاب ديني موحد، المؤتمر السنوي العاشر لمركز تطوير التعليم الجامعي، جامعة عين شمس، ٢٧– ٢٨ ديسمبر ٢٠٠٣م.
- هدى درويش، دور التصوف في انتشار الإسلام في آسيا الوسطى والقوقاز، عين للدراسات والبحوث، القاهرة/ ٢٠٠٤م.
- هدى درويش، الحجاب بين الأديان والعلمانية، عين للدراسات والبحوث، القاهرة/ ٢٠٠٥م.
- مجلة لواء الإسلام، مؤسسها السيد محمود أبو الفيض المنوفي، العدد الأول، مصر، ٣ يوليو ١٩٢٤، ص١٦، ١٧.

المنقذ المرتقب

نجيب فاضل *

لا أدري أين هو الآن. . . في صلب أيّ رجل. . . في رحم أي امراة. . . على كرسي أي دائرة. . . في صف أي مدرسة ابتدائية أو متوسطة أو عالية. . . على رأس أي فوج، أي سرية، أي فصيل. . . في أي زاوية هادئة من زوايا أي مسجد. . . في أي ركن هادئ من أي مكتبة. . . أين هو. . . أين؟. . . لا أدري.

أيأتي عن طريق الانتخاب. . . أيظهر وهو يقود الجماهير. . . أم يصل بواسطة منظمة جديدة؟. . . أيقفز من المظلة أم ينزل من صحن طائر؟. . . كيف يأتي؟. . . كيف؟. . . لا أدري.

أيكون سلاحه القلم أم السيف؟. . . إبرة التطعيم أم قنينة الدواء؟. . . ما هو سلاحه؟. . . ما هو؟. . . لا أدري. . .

ولكن الذي أومن به كبديهية رياضية هو أن هذه الأمة ذات التاريخ العريق منذ آلاف السنين والتي وجدت أغلى شرفها وعزتها في الإسلام تنتظر وتبحث عن البطل الذي يجدد لها إيمانها وأشواقها؛ وإنها ستجد ما تبحث عنه بلا شك ودون ريب.

أجل! إن الشيء الذي أعلمه هو أن هذا الوطن بجماده ونباته وحيوانه وإنسانه. . . هذا الوطن بأجمعه ينتظر مُنقذه مثلما تنتظر السنبلة الملوحة بالشمس قطرات الماء. . . مثلما ينتظر المريض الدواء. . . مثلما ينتظر البريء العدالة. . . مثلما ينتظر العاشق الموله معشوقته. . . هكذا تنتظر هذه الأمة منقذها.

إن هذا انتظار من نوع آخر، بحيث حتى إن لم يكن هناك من يأتي، ولو لم يكن هناك من يتوقع مجيئه فإن هذا الانتظار من القوة بحيث يعطي له وجودا. . . يولده وينشئه ويربيه ويصقله.

أجل! نحن ننتظر هذا البطل. . . هذا البطل الذي ستشكله في رحم أمه شدة رغبتنا ولهفة انتظارنا له.

وبخلاف تيار السطحية والتعصب وجفاف القلب والروح، وجفاف الشوق والوجد سيدافع هذا البطل عن معانٍ وعن روح المقاييس المقدسة بجميع جبهاتها ومفاهيمها الظاهرة منها والباطنة.

سيرفع هذا المنقذ ذراعيه صارخا: «لا. .» في وجه الجمود والتأخر، وفي وجه التقليد الغربي الذي بدأ منذ عهد «التنظيمات» ووصل إلى ذروته في عهد «الجمهورية». سيقول: «لا. .» في وجه إنكار واحتقار مقوماتنا وشخصيتنا، وتسليم هذه الشخصية إلى الغرب بتقليد سطحي يتناول مظاهر الأشياء.

سيعرف هذا المنقذ العالم الغربي بكل جوانبه وبكل أزماته أفضل من أي مفكر غربي، ويعرف العالم الشرقي بكل نقاط ضعفه وكل قواه الخفية، ويعرف السر الموزون والمحسوب بين هذين العالمين ويرفعه في يده كشعلة وهّاجة.

سيقدم هذا المنقذ إلى هذه الأمة المقياس الذي تستطيع بواسطته تمييز الأبطال الزائفين الذين ظهروا في عهود الجمود والتأخر والانحطاط عن الأبطال الحقيقيين، ويكشف بذلك خداع ونفاق الذين قدموا الزائف في صورة الحقيقي.

سيبحث هذا المنقذ وسيدافع عن حقوق الإيمان والأخلاق والتاريخ، وعن حقوق مؤسسات الأمة، وسيرسي قواعد البيت والعائلة، وعلاقات وحقوق الرجل والمرأة والطفل، والمدرسة والمزرعة والمصنع، والدولة وكرسي العدالة والجيش على قواعدها الأصلية الحقيقية.

سيُظهر هذا المنقذ في أجلى صورةٍ ما فقده الذين انقلبت المفاهيم عندهم في «التقدّمية»، وما خفي عنهم في «الرجعية». سيرتفع هذا المنقذ بالروح، وسيجمل ويزين المادة تحت إمرة الروح.

سيعلن بكل قوة أن ما يبحث عنه هو في الإسلام، ولن يأخذ عن الغرب غير العلوم والمعارف المجردة، وغير حق العقل في فحص المادة وتدقيقها؛ وبذلك يقدم أحسن أنموذج يشتاق إليه القرن العشرون. وبكلمة واحدة فإن هذا المنقذ سيكون الممثل الحقيقي للإسلام بكل ما فيه من أصالة وصفاء اليوم وغدا.

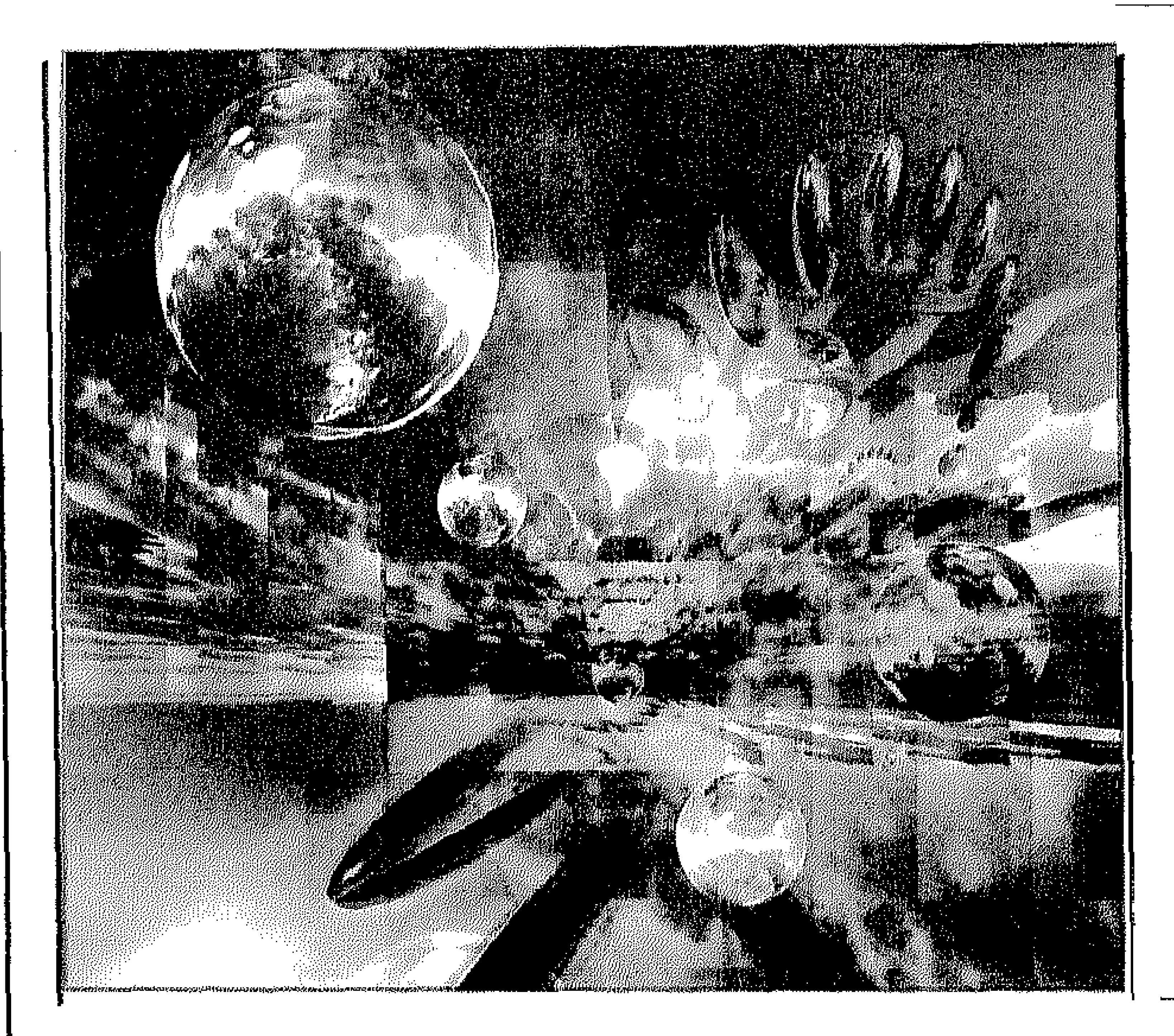
وبنسبة مأساة وسفالة انحطاطنا ستكون نسبة ارتفاعنا وصعودنا على يد هذا المنقذ البطل.

حسب السنن الإلهية وقوانينها. . .
لا بد أن يأتي هذا البطل. . .
بما أن هذه الأمة ستبقى. . .
إذن فهو آت لا محالة. ■

*) من كبار شعراء ومفكري تركيا. لُقّب بـ«سلطان الشعراء» توفي سنة ١٩٨٣م. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

رجل العلم الحقّ هو الذي يجمع بين أصدق ما نزل من السماء وأصدق ما على الأرض، فيورثه ذلك تمام الإطمئنان. أما النفوس المحرومة التي ترى بعين واحدة، فسرعان ما تُغير طريقها وتبدّل وجهتها وتقضي عمرها في إطلاق الحسرات والأنين لأنها تبقى حبيسة أوهام النظرة الواحدة.

الكون في قلب ذرة:
الهولوغرام



د. زينب جوناي أونالان *

ما هو الكون؟ كان البحث عن إجابة هذا السؤال الأساسي بمثابة نقطة ابتداء للفلسفة والعلوم ، غير أن المؤمنين يلجأون للدين بحثا عن إجابة نهائية. وقد نظر معظم المفكرين المسلمين إلى أسماء الله الحسنى باعتبارها الأشياء الأولية التي ينبغي إدراكها ، والتي نستطيع من خلالها اكتساب معرفة الكون. وعلاوة على ذلك هناك أعداد متزايدة من الناس يشيرون إلى الكون باعتبار أنه هولوغرام يقدم لنا صورا لحقيقة أعلى. وأول سؤال يتبادر إلى الأذهان هو: هل يمكن لتجليات أسماء الله -كما توضحه النصوص الصوفية- أن تكون مؤيدا لفكرة الكون الهولوغرافي؟

غير أن هذا المقال لا يهدف إلى الإجابة على هذا السؤال ، بل يهدف إلى توضيح أن النموذج الهولوغرافي للكون قد يغذي تخيلاتنا بالشكل الذي يساعدها على تصور تجلي أسماء الله في كل شيء. ولهذا الغرض فسوف نركز أولا على الخصائص الرئيسية للهولوغرام ، كما سنكشف ماذا نعني بكون هولوغرافي ، ثم سنستخدم هذه الاستعارات في فهم الكون في علاقته بأسماء الله الحسنى.

ما هو الهولوغرام؟

الهولوغرافيا هي أسلوب تصوير يشبه الفوتوغرافيا كثيرا ، إلا أن صورة الشيء تكون ثلاثية الأبعاد في الهولوغرافيا ، والأداة الرئيسية وراء ذلك هي ضوء الليزر. هيا نرى كيف نحصل على هولوغرام لزهرة؛ لكي نحقق ذلك يجب فصل شعاع الليزر إلى شعاعين عن طريق فاصل للأشعة ، ثم يسقط أحد الشعاعين مباشرة على فيلم حساس للضوء ، بينما ينعكس الشعاع الآخر من الزهرة ثم يسطع على نفس الفيلم ، وعندما يتداخل هذان الشعاعان سوف يشكلان نمطا متداخلا على الفيلم وهو ما يسمى بـ«الهولوغرام». وهذا النمط -الذي يشبه التموّجات التي تشكلها قطرات المطر على بركة من الماء- من الممكن رؤيته فور تحميض الفيلم ، وتظهر صورة ثلاثية الأبعاد للزهرة بمجرد أن يُضاء الهولوغرام بضوء ليزر آخر ، وذلك لأن الرسالة الكلية لجميع الجوانب البصرية للزهرة ملفوفة على سطح الفيلم ثنائي الأبعاد ، وما يحدث في الحقيقة هو إظهار معلومات الزهرة كما هي مخزنة في النمط المتداخل.

إن السمة العجيبة هي أننا إذا قمنا بقطع الهولوغرام نصفين ثم قمنا بإضاءة إحدى القطعتين بالليزر ، فإننا سنظل قادرين على إخراج الصورة الكاملة. وحتى إذا ظللنا نقوم بتقطيع الفيلم إلى قطع أصغر وأصغر فإن كل قطعة أخرى سوف تظل تمتلك جميع المعلومات الخاصة بالزهرة. وبالإضافة إلى هذا يمكننا أن نرى الجوانب المختلفة من الزهرة عندما ننظر إلى صورتها من زوايا مختلفة ، حيث يعطينا هذا وهْما مقنعا لرؤية شيء ثلاثي الأبعاد.

الكون الهولوغرافي

إن فكرة أن الكون يمكن أن يكون هولوغراما جاءت من حقيقة أنه ليست أمواج الضوء فقط تستطيع أن تعرض سلوك التداخل، ولكن أمواج المادة أيضا تستطيع هذا. وقد ظهر مستوى أعمق من تفسير الكون الهولوغرافي من خلال النماذج النظرية التي تحاول أن تشرح الفعل المتناسق للقوى الأساسية الأربعة في الطبيعة. وهذه النظريات تقترح أحد عشر بُعدا من الزمكان (المكان-الزمان)، والذي يظهر عمليا رباعي الأبعاد على المستوى البشري؛ وهذا يمكن، بطريقة ما، أن يشير إلى أن معلومات الحقيقة في أحد عشر بُعدا يتم إسقاطها على أسس الزمكان الذي نعيش فيه. ومع هذا فإنه بمساعدة «المبدأ الهولوغرافي» الذي قال به (جيرارد هوفت) تظهر الطبيعة الهولوغرافية لكل النظم الفيزيائية؛ حيث إن هذا المبدأ يشرح كيف يمكن وصف نظام فيزيائي ثلاثي الأبعاد بواسطة نظرية مبنية على منطقة ذات سطح ثنائي الأبعاد. وبهذا فإن فكرة «الكون الهولوغرافي» خرجت إلى النور بمجرد أن تم تطبيق هذا المبدأ على الكون، وهو أكبر نظام فيزيائي نعرفه.

ومع النموذج الهولوغرافي للكون يأتي إدراك أن كل نقطة في الكون تحتوي على الكون بأكمله في ذاتها، وكل حبة رمل ترتبط بكل كوكب في الكون، تماما كما تتضمن الجزيئات الأصغر من الذرة شبكة من الترابطات تصبح بها متشابكة مع الخلية البشرية. و«ديفيد بوم» هو أحد علماء القرن العشرين المعروفين بإدراك هذه الكلية في الطبيعة. وقد جاء تفسير «بوم» للكون كهولوغرام في شرحه لتجربة عام ١٩٨٢ قام بها «ألاين أسبيكت» وفريقه، والتي كشفت مدى سرعة تواصل الجزيئات الأصغر من الذرة مع بعضها البعض. وفي الحقيقة أنه قد اكتُشف أن هذا الاتصال سريع للغاية، وأنه أسرع حتى من سرعة الضوء، كما لو كانت الجزيئات «تعرف مصائر بعضها». وقد أشار بوم إلى أن الجزيئات ليست في حاجة إلى أية إشارة من أجل التواصل مع بعضها، هذا ببساطة لأن الانفصال بينها هو مجرد وهم. والانفصال الظاهر هو تصور من مستوى أعلى للحقيقة، وهو ما يسميه النظام المتضمَّن، حيث كل شيء مرتبط، وتتصرف الجزيئة كما لو كانت تعرف مصير الجزيئة الأخرى؛ وذلك لأن لديها المعلومات الخاصة بالجزيئة الأخرى داخلها.

وثمة عالم آخر رأى أن الهولوغرافيا فعالة ومؤثرة وهو «كارل بريبرام» المتخصص في علم وظائف الأعصاب. وقد كان بريبرام يحاول التوصل إلى المواقع المحددة في المخ التي تقوم بتخزين ذاكرتنا، وقد كشفت تجاربه أنه لا توجد مركزية في هذا الأمر. ويزعم بريبرام أن النموذج الذي يشكله تداخل الإشارات الكهربية من كل خلية عصبية في المخ هو، في الحقيقة، المكان الذي يتم فيه «تخزين» الذاكرة.

تجليات الأسماء الإلهية والهولوغرام

وصف العديد من المفكرين المسلمين، من الغزالي إلى ابن عربي، الله -عزّ وجل- بأنه «النور»، كما عبروا عن كل الكيانات في الكون باعتبارها تجليات لهذا النور. ويؤكد القرآن هذا المدخل في آيات عديدة من أشهرها قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (النور: ٣٥). ومع هذا وبما أن الله -سبحانه وتعالى- ليس له مثيل ولا شبيه بين مخلوقاته، فإن هذا النوع من الوصف لا ينبغي أن يُعتَبر تشبيها بالنور الذي نعرفه، ولكن ينبغي فهمه باعتباره استعارة. ورمزية النور تُستخدم بشكل أساسي لشرح العلاقة بين الله -تعالى- وبين المخلوقات، ولكن ينبغي على المرء أولا أن يكون لديه علم عن الأسماء الحسنى لكي يفهم هذه العلاقة.

إن الآيات في القرآن بوجه عام تنتهي بذكر لبعض الأسماء الحسنى: المُحيي، المميت، الغفور، المُقيت، العليم، الخالق، وغيرها. ونحن ندعو الله عز وجل باسم الخالق -مثلا- بعد أن شهدنا آثار هذا الاسم في الخلق؛ كما أننا نشهد رحمته سبحانه بالخلق، ولهذا فنحن ندعوه «الرحيم». وكل شيء من الكائنات الطبيعية إلى العلوم يبرهن على أسماء الله تعالى بطريقة أو بأخرى؛ فكل أنواع السمع ناشئة من كونه «السميع» سبحانه وتعالى؛ واسمه «العدل» يُظهر في الطريقة التي وضعت فيها الكواكب في مداراتها؛ بينما يمكننا أن نرى اسمه «المُقيت» في الطريقة التي يقيت فيها سبحانه كل حيوان وكائن؛ ويعكس الطب اسمه «الشافي»، بينما تعكس الهندسة اسمه «المقدر».

وفي شرحه لتجليات أسماء الله تعالى أعطى بديع الزمان سعيد النورسي مثالا بالشمس وضوئها في كلمته السادسة عشرة، حيث شبّه النور القادم من الشمس - ولله المثل الأعلى - بنور الله تعالى وصفاتها بصفات الله عز وجل. فمثلا يمكننا أن نمثّل حرارة الضوء الأبيض بقوة الله تعالى، وأن نمثل سطوعه بعلم الله، عز وجل. وعندما تنعكس الشمس، على مرآة مثلا، فإن

حرارتها وسطوعها موجودان أيضا بالإضافة إلى صورتها. وبالمثل -ولله المثل الأعلى- فإن الله عز وجل يتجلى في كل الكائنات بكل صفاته سبحانه، ومع هذا فإن هناك درجات لهذا التجلي، وهو ما يعتمد على قدرات الكائن ومنزلته. ويمكننا أن نستخدم القياس على الضوء لنرى كيف يمكن أن تعطي المنازل المختلفة ظهورا مختلفا؛ فالمرآة المسطحة لديها القدرة على إنتاج صورة الكائن بحجمه وشكله الطبيعي، بينما يمكن أن تتسبب المرايا في أماكن التسلية والمرح في إحداث تشوهات تعتمد على درجة الانحناء. وفي التصوف يتم تقديم حقيقة أن الأسماء الحسنى متعددة وأنها تتجلى بدرجات مختلفة باعتبارها السبب وراء التنوع في الكون وفي البشر. وبهذا فإن البشر، الذين خُلقوا ولديهم أكثر القدرات تعقيدا، يحتلون المرتبة العليا في هذا التدرج؛ بينما يُعتبر القلب، وهو القدرة الأكثر دقة في الإنسان، هو مركز هذا التجلي.

وباتخاذ القياس على الضوء مرة أخرى، وباستخدام الاستعارة الخاصة بالهولوغرام، يمكننا بشكل أفضل أن نتصور العلاقة بين الله والكون وفكرة تدرج تجلياته سبحانه. وفي هذا القياس الذي نقدمه -ولله المثل الأعلى- يمثل ضوء الليزر صفات الله تعالى، ويمثل (فيلم) الهولوغرام الزمكان رباعي الأبعاد، في حين أن نموذج التداخل يقابل التداخل مع أسماء الله عز وجل. وبهذا فإن كل شيء في الكون يمكن أن يُنظر إليه كنموذج لتجلي أسماء الله الحسنى مغطى خلال المكان والزمان. والنتيجة التي يمكن أن نخرج بها هي أن الأسماء الحسنى في الحقيقة تمثل أثرا لهذا التداخل، مثلما هو الحال مع ضوءين متداخلين. وصفات الله تعالى – ولله المثل الأعلى – هي التي ينتج عنها كل الأشياء الموجودة مثلما ينتج الهولوغرام عن تداخل ضوء الليزر. وهذا القياس يتسق مع النصوص الصوفية التي تقوم بالتمييز بين أسماء الله تعالى وصفاته. ويؤكد الإمام الرباني السرهندي، وهو عالم مشهور، على هذا التمييز في مكتوباته؛ فالصفات الإلهية (مثل الوجود، والقِدَم، والبقاء، ومخالفته تعالى للحوادث، وقيامه بذاته، والحياة، والعلم، والقوة، والكلام، والقدرة، والسمع، والبصر، والخلق) هي صفات لا يمكن أن تنفصل عن ذات الله عز وجل. وعندما يتجلى الله تعالى، فإن آثار الصفات العليا تظهر، ونسمّي هذه الآثار «الأسماء الحسنى»، وهذا يعني، باختصار، أن الصفات هي مصدر الأسماء، كما أن الضوء هو مصدر التداخل.

وبالإضافة إلى هذا، ومع قياس الزمكان على الهولوغرام، فإذا قمنا بقطع الزمكان إلى عدد لانهائي من القطع، فإن الكون بأكمله سوف يكون حاضرا في كل موقع. ويُعبّر «محمود سبستري» بشكل تام عن هذا التواصل والوحدة في كل الخلق في قصيدته «كولشن راز» (حديقة الزهرة الصوفية) حيث يقول:

اعلم أن العالم مرآة من رأسه إلى قدميه،

ففي كل ذرة مئة شمس مستعرة،

وإذا شققت قلب حبة ماء واحدة،

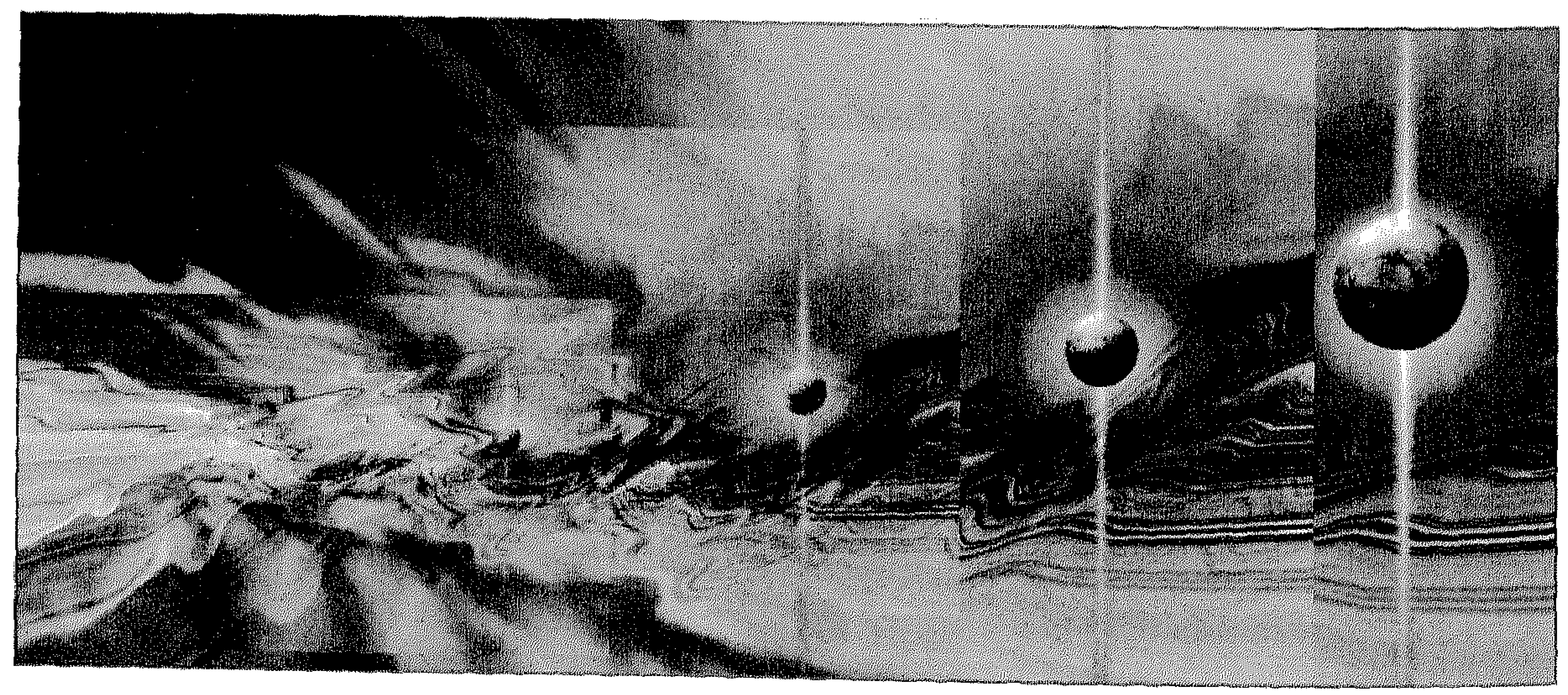
سيخرج منها مئة محيط نقي المياه،

وإن فتشت في كل حبة رمل،

ربما رأيت ألف آدم في قلبها،

والبعوضة في هذا العالم مثل الفيل،

وقطرة المطر تصبح في منزلة النيل...



إن قلب حبة الشعير قد يساوي حصاد المئات،

فالعالم يسكن في قلب حبة من ذُرة،

وعلى جناح بعوضة يرقد بحر الحياة،

وفي سواد العين تجد سماء ممتدة. . .

إن هذه الطريقة في النظر إلى كل الأشياء ربما تقود إلى الإيمان بوحدة الوجود، وهو ما ينتج عنه إنكار وجود العالم؛ بسبب الاعتقاد بأن الشيء الوحيد الموجود هو الله. وثمة ملاحظة ضرورية في هذه النقطة، وهي أن هذا ربما يبدو أشبه بمذهب الحلولية، ولكن هناك تمييز حاسم وهو أن ما يتم إنكاره في مذهب الحلول هو الله وليس العالم. وفي الواقع أن العديد من الناس، في محاولتهم لدمج منظور الكون الهولوغرافي بالتصوف، يتبنون الاعتقاد الصوفي في «هه مه أوست»، وهو اسم آخر لوحدة الوجود، ويعني أن «الكل هو».

ولكن الاستعارة الهولوغرافية، كما قدمناها آنفا، ربما تساعد أكثر في محاولتنا لفهم توحيد الله عز وجل، دون إنكار العالم. فالاعتقاد بأن كل الكائنات هي أثر لتداخل أسماء الله تعالى هو اعتقاد يتسق مع الإيمان بأن كل كيان هو مرآة للتجليات الإلهية. ومع ذلك فينبغي أن تلاحظ أننا فرقنا بين الأسماء الحسنى والصفات العليا، وكل مخلوق يظل في الوجود من خلال أسماء الله تعالى؛ فأسماء الله هي الحاضرة في كل بقعة من هذا الكون، وهو سبحانه مصدر هذا الكون. إن الله تعالى باقٍ، بينما الكون ينتهي وجوده بمجرد انقطاع اتصاله بالله تعالى، ويشار إلى وجهة النظر هذه في التصوف بـ«هه مه أز أوست»، والتي تعني «الكل منه». وفي وجهة النظر هذه لا يجري إنكار وجود العالم، ولكن يمكن التساؤل حول مستوى هذا الوجود. فإذا تم تعريف الوجود الحقيقي باعتباره الوجود المطلق لله تعالى فإن الكون ليس له وجود حقيقي، ولكنه لا يزال في شكل من الوجود المؤقت والطارئ. ويشرح المفكرون الإسلاميون هذا التحدي الوجودي من خلال ضرب أمثلة بالظل؛ فالعلاقة بين الخلْق والخالق تشبه تلك العلاقة بين الظل والشكل الحقيقي؛ وبالتالي فإن التشبيه الذي رأيناه في الظل وفي الهولوغرام هو تشبيه يمكن منه أن نبني فكرة عامة عن تجلي أسماء الله الحسنى، علماً بأنه سبحانه ليس محدودا بهذه الأبعاد.

الهولوغرام والكشف الروحي

وفي الحقيقة أن التشبيه الخاص بالهولوغرام يمكن أن يساعدنا على إدراك الكشف الروحي؛ فنماذج التداخل الناشئة عن كائنات مختلفة يمكن أن يتم تسجيلها على نفس الفيلم، من خلال إسقاط أشعة الليزر على زوايا مختلفة ومتغيرة. وفي هذه الحالة سوف تظهر صورة مختلفة ثلاثية الأبعاد، وهذا بناء على اتجاه وتردد الشعاع الذي نرسله من خلال الفيلم. وثمة نقطتان للتأكيد وهما أن استخدام ضوء الليزر ضروري لرؤية أعلى فيما يتعلق بالأبعاد، وأن المرء يستطيع أن يرى حقائق مختلفة.

وبطريقة مشابهة يحتاج السالك في رحلته الروحية إلى أن يكون لديه إشراق من نور الله ليكون قادرا على رؤية أبعاد أخرى. ومع نور الله تعالى يحدث الكشف الروحي وربما يرى السالك حالات مختلفة من الواقع، وهذا ينبني على مدى معرفته لله وقربه منه، وأي من الأسماء الحسنى يقوم بتأمله أو ذكره، وغير ذلك. وبهذا فإن المعلومات المعقدة التي تقول بأن كل عنصر في العالم يمكن أن يكشف عن كل كائن آخر، تعتمد على حقيقة أن أسماء الله الحسنى تدل على بعضها البعض. ويمكننا بالإضافة إلى هذا أن نستخدم فكرة التداخل لوصف مفهوم التدرج في تجلي أسماء الله تعالى. وفي نموذج التداخل لا يكون لكل النقاط نفس السطوع، وتعتمد درجة السطوع على موقع كل من الضوءين وطريقة تداخلهما، حتى أنه توجد نقاط لا يمكن ملاحظة أي ضوء عليها. ومع ذلك فإن هذا لا يعني أنه لا يوجد ضوء هناك، ولكنه ببساطة لا يمكن رؤيته لأسباب مختلفة.

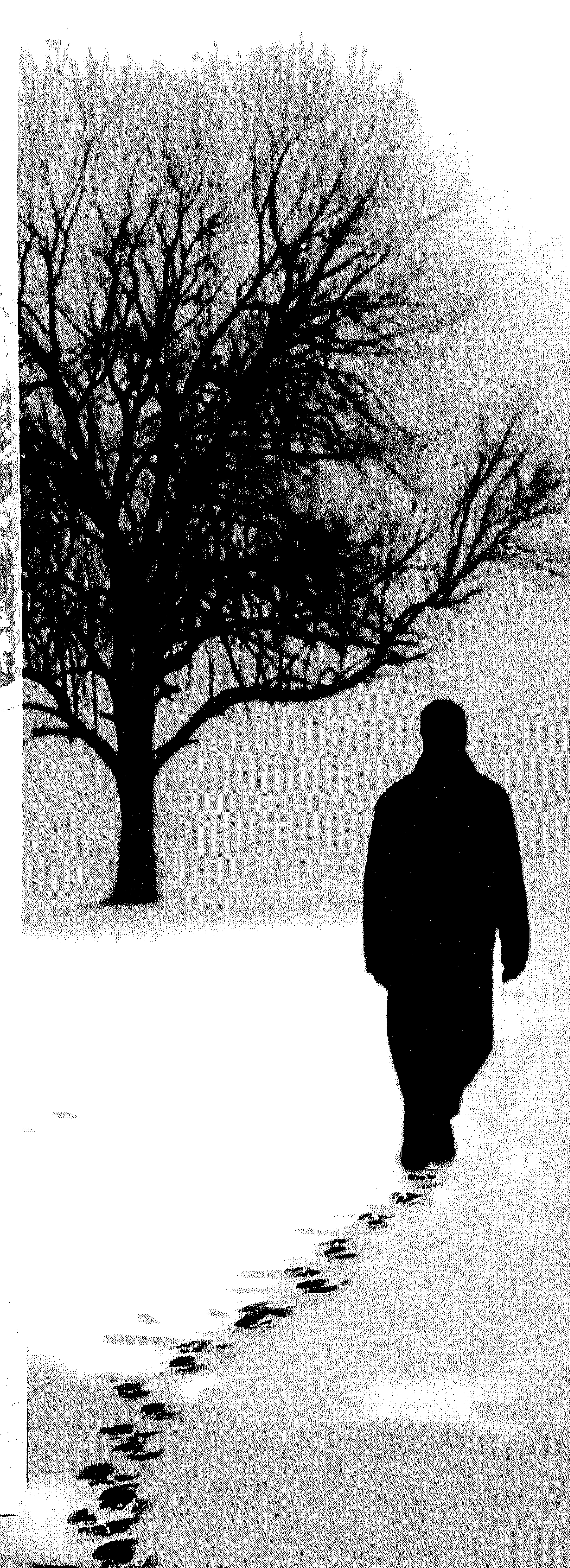
ولإيقاف هذا الحبل من الأفكار ينبغي علينا أن نجد إجابة لسؤال غامض وهو: إذا جاء كل شيء في الزمكان رباعي الأبعاد إلى الوجود بمجرد إسقاط حقيقة أعلى بواسطة نور الله على فراغ الظلام، فما هي إذن تلك الحقيقة الأعلى متعددة الأبعاد؟ إنها الحقيقة التي يمكن أن يشهدها فقط أولئك الذين يرون ما وراء ظاهر الأشياء، هؤلاء الذين يحررون أنفسهم من الدنيا المادية والشهوات الجسدية. إنّ هذا في النهاية سؤال لا يستطيع أن يجيب عليه إلا هؤلاء الذين طهّروا قلوبهم ويستطيعون أن يروا ما وراء الأشياء. ■

---

*) جامعة ميشيغن – الولايات المتحدة. الترجمة عن الأنكليزية: بهاء الدين إبراهيم نعمة الله.

الأثر والإنسان...!

كثيرٌ هُمُ الراحلون كُلّ يوم،
وقليلة هي آثارهم الباقيات بعد الرحيل،
منذ أزمان سحيقة،
رُسِمَ على الأرض آثار خطوات،
استعصت على رياح الزمن،
فما اندرس رسمها،
وما انْمَحَتْ.
التاركون على الأرض ظلالهم،
الراسمون على الأرض آثارهم،
كم من سالكٍ سلكها دون مَشَقّة،
وكم من عابر طريق مَرَّ فوقها بسلام.
أمّا المسالك الملتوية،
والآثار المعوجة،
ذات الفجاج الضيقة،
كم أضَلَّتْ من سالك،
وكم أهلكتْ من عابر...
وكم على الطريق من آثار،
عليها فَاسكُبْ العَبَرات،
وبترابها فَمَرِّغْ وجهك،
لأنها مَعْلَمُ هداية،
وآثار سلامة...
أيها المسافر إلى بعيد،
أيها الماضي من قريب،
تُرَى أيّ نوع من الآثار،
ستترك بعدك...؟



الغاية من العلم اتخاذه مرشدا وهاديا لتنوير طرق ارتقاء الفرد نحو الكمالات الإنسانية. فالعلوم التي لا تلتفت إلى الجانب الروحي للإنسان تكون عبئا على صاحبها. وكل معرفة لا تأخذ بيد الإنسان نحو الأهداف السامية ليست إلا عبئا على القلب والفكر لا تجدي نفعا.

ثلاثة أجيال أمام المحكمة

أورخان محمد علي *

ألقى رئيس المحكمة الإيطالي كارو تورللي نظرة ثاقبة على المتهمين الثلاثة الماثلين أمامه، شيخ وكهل وشاب في مقتبل العمر، كانوا يمثلون أجيالا ثلاثة متعاقبة. والغريب أنهم كانوا من عائلة عثمانية واحدة. . . كان الشيخ هو الجد والكهل ابنه والشاب حفيده.

كانوا آتين من مكان بعيد بعيد. . . من وراء آلاف الكيلومترات. . . من الأناضول إلى بنغازي في ليبيا. ما الذي دفعهم ليقطعوا كل هذه المسافة ليصلوا خفية إلى ليبيا؟! لم يكن رئيس المحكمة يجهل سبب مجيئهم. . . إنه داعي الجهاد الذي لا يزال المسلمون متمسكين به. . . داعي الجهاد هذا هو الذي دفع هذا الشيخ وابنه وحفيده وهو في ميعة الصبا إلى ترك مدينتهم وبيتهم ويقطعوا كل هذه المسافة ليصلوا إلى ليبيا من أجل معاونة إخواهم الليبيين والجهاد معهم ضد إيطاليا التي احتلت ليبيا.

كان الشيخ هو الميرلواء (الجنرال) المتقاعد محمد باشا. . . وابنه الميرالاي أحمد علاء الدين محمد. . . والحفيد هو الشاب محمد. . . فما قصة هؤلاء المجاهدين من الجد والأب والحفيد؟

كانت طرابلس الغرب وبنغازي قد احتلتا من قبل إيطاليا، وكانت الدولة العثمانية في ضائقة مالية وعسكرية كبيرة، وهي تعاني من سيطرة حزب الاتحاد والترقي عليها بعد عزل السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٩. لم تكن الدولة العثمانية قادرة على مواجهة إيطاليا عندما قامت في ١٩١١م بغزو ليبيا فجأة ودون سابق إنذار. كل ما كانت تستطيعه هو إرسال بعض المجاهدين لمساعدة إخوانهم الليبيين. لم يتردد هؤلاء المجاهدون الثلاثة. . . الجد والابن والحفيد. . . تقدموا وسجلوا أنفسهم في المجموعة الفدائية التي أطلق عليها اسم «الضباط الفدائيون». وعلى الرغم من جميع الشروط والظروف القاسية، ومن قلة العدد، وقلة الأسلحة والمعدات، وقلة التمويل، وطول الطريق، فقد وصلوا سرا إلى ليبيا حيث التقوا رؤساء العشائر وأشراف البلد وبدأوا بتدريب البدو وأبناء العشائر على فن القتال. لم يكونوا يملكون أسلحة ثقيلة، لا مدافع ولا دبابات ولا رشاشات، بل مجرد بضع مئات من البنادق القديمة. كان عدد الضباط العثمانيين وكذلك المتطوعين من أفراد العشائر الليبية قليلين، وكان مطلوبا منهم القتال ضد جيش إيطالي مجهز بالأسلحة الثقيلة وبالطائرات، ويفوقهم بعشرات بل بمئات المرات في العدد والعدة. كانوا يعتمدون في الحصول على

الأسلحة على الهجوم المباغت الذي يشنونه على العدو ويحصلون على أسلحة الفارين والمقتولين منهم .

في إحدى الهجمات التي كبدوا فيها العدو خسائر كثيرة طُوقوا وحوصروا من قبل مدد جديد للجيش الإيطالي وأسروا . وها هم اليوم يمثلون أمام محكمة عسكرية إيطالية .

كانت أيديهم موثقة بالحبال بقوة بحيث أدمتها ، كانوا يلبسون اللباس الليبي المحلي ، وعلى رأس كل منهم طربوش عثماني . كانت التهمة ثابتة عليهم في نظر المحكمة ، فقد أسروا وهم يقتلون ورائحة وأثر البارود لا يزال على أيديهم .



ولكن الشيء الوحيد الذي كان يزعج رئيس المحكمة هو وجود صحفيين أحدهما بريطاني والآخر فرنسي حضرا لمتابعة المحكمة . سألهم رئيس المحكمة:

– من أنتم؟

وقبل أن يقوم مترجم المحكمة بترجمة إلى المتهمين تقدم الكهل خطوة إلى الأمام وقال بلغة إيطالية سليمة:

– اسمي الميرالاي (العقيد) أحمد علاء الدين الضابط العثماني في خدمة مولاي السلطان . . . وهذا (مشيرا إلى والده) والدي الميرلواء (جنرال برتبة لواء) المتقاعد محمد باشا . . . وهذا (مشيرا إلى ابنه) ابني محمد الجندي المتطوع في الجيش العثماني .

استولى الذهول على أعضاء المحكمة وعلى الحاضرين في المحكمة وتبادل الصحفيان نظرة حائرة . جنرال متقاعد يتطوع في الجيش وتحت إمرة ابنه ويقاتل العدو كأي جندي آخر!! ثم أيّ عائلة هذه التي يجتمع فيها الجد مع الابن مع الحفيد في معركة يائسة بعيدة عن وطنهم؟!

أحس رئيس المحكمة أن الوضع أصبح أكثر حساسية فقد ظهر أن الماثلين أمامه عسكريون . . . ضابطان وجندي عثماني .

قرر رئيس المحكمة إلقاء الشبهة على هذا الأمر فقال مستجوبا العقيد:

– هل لديك أوراق رسمية تثبت ما تقول؟

بعد معاناة وألم شديد استطاع العقيد أحمد إخراج ورقة من طيات ثوبه بيديه الموثقتين:

– هذا هو الأمر الرسمي لتعييني .

أخذ الحاجب الورقة الرسمية من يد العقيد وسلمها إلى رئيس المحكمة الذي بدأ يفحصها بدقة بينما تابع العقيد كلامه:

– إن قام مترجمكم بترجمة هذه الورقة الرسمية لكم فسترون أنها أمر رسمي بتعييني قائدا للواء الثاني من الفدائيين العرب في ولاية طرابلس وهو صادر من السَّرْعَسْكَر العثماني (وزير الحربية العثماني) .

كان من المفروض أن يؤدي هذا التطور الجديد في سير المحكمة إلى تغيير مجراها من محكمة تحاكم لصوصا هاجموا الجيش الإيطالي إلى محكمة عسكرية تتقيد بالقوانين الدولية حول محاكمة الأسرى العسكريين . ولكن مثل التقيد بالقوانين الدولية لمحاكمات العسكريين ومراعاتها كان أمرا بعيدا عن هذه المحكمة التي كانت قد أصدرت قرارها مسبقا وقبل بدء المحاكمة . وتظاهر رئيس المحكمة بأنه لا يصدق ادعاءات المتهمين ، لذا فلم يكن يعدهم أسرى حرب ، وكان دليله أنهم لم يكونوا يلبسون البزة العسكرية عند إلقاء القبض عليهم ، بل كانوا بزيّ محلي .

ذكر رئيس المحكمة هذا الأمر للمتهمين نافيا كونهم عسكريين عثمانيين . أجاب العقيد العثماني:

– نظرا لكوني قائدا لمقاتلين لا يلبسون البزة العسكرية فإنني

فضلت أن ألبس مثلهم ولا ألبس البزة العسكرية لعقيد عثماني.

قرأ المدعي العسكري التهمة الموجهة إليهم وهي قيامهم في ٢٦ من شهر تشرين الأول من تلك السنة بمهاجمة الجيش الإيطالي وضربه من الخلف ضربة خائنة.

أنكر العقيد أحمد علاء الدين هذه التهمة:

– لم أضربكم من الخلف، بل هجمنا عليكم، هذا كل ما في الأمر، علماً بأننا كنا قلة قليلة.

– لم تكونوا قلة، بل هجمتم بأعداد كبيرة.

– بل كنا قلة، كل ما كنا نملكه كان عبارة عن ٤٠٠ بندقية.

– أين هذه البنادق الآن؟

– لا تزعجوا أنفسكم من هذه الناحية... ستجدون أن ٣٥٠ بندقية ستصوب إليكم في القريب. أما البنادق الباقية وهي ٥٠ بندقية فقد استشهد ١٥ مجاهدا من حامليها، وتم القبض على ٣٥ مجاهدا مع بندقيته وأعدموا من قبل محكمتكم هذه.

كان رئيس المحكمة يصر على أن هؤلاء المتهمين تابعون للحكومة الإيطالية ولكنهم أعلنوا العصيان عليها، لذا فهم مجرد شقاة عصوا دولتهم. وما دام الأمر هكذا فالحكم واضح. أما العقيد العثماني فقد أصر على موقفه قائلا:

– لم نكن نحن تابعين لكم في يوم من الأيام... ولم يكن المجاهدون العرب تحت قيادتي تابعين لكم... نحن جميعا مواطنون عثمانيون، لذا لا نعترف بكم.

ظهر الانزعاج واضحا في وجه رئيس المحكمة العسكرية، لذا حول مجرى الأسئلة إلى أسئلة قصيرة تتطلب أجوبة سريعة وقصيرة:

– هل شاركتم في الهجوم يوم ٢٦ من شهر تشرين الأول لهذه السنة (١٩١١م)؟

– لقد قدت أنا ذلك الهجوم.

– وهل اشترك هذان (مشيرا إلى والده وابنه) أيضا في ذلك الهجوم؟

– أجل! إن ابني جندي، ووالدي جنرال عثماني متقاعد تطوع في وحدتي جنديا!!

أطرق رئيس المحكمة بنظره وتظاهر بأنه يدقق بعض الأوراق. ثم استأنف أسئلته:

– وهل قاتلتم جميعا دون بزة عسكرية؟

– أجل! وقد شرحت السبب.

– هل اشركت تحت قيادتك أي أفراد من سكان طرابلس المحليين؟ وهل دربتهم؟

– إن ولاية طرابلس ولاية عثمانية، وسكانها مواطنون عثمانيون، وقد ألحقتهم بوحدتي ودربتهم وقدتهم.

– يكفي هذا.

انتهت المحكمة وصدر القرار فورا... الإعدام رميا بالرصاص.

قام رئيس الكتاب في المحكمة وهو من مدينة نابولي الإيطالية واسمه أنطونيو أوانكلي بقراءة قرار المحكمة الذي كان قد كتب قبل انعقاد المحكمة قائلا في الختام: «وصدر القرار الآنف وسجل في السجل ولا يوجد حق تمييز للمتهمين».

يقول أحد الصحفيين اللذين كانا في المحكمة: لم تبهت الابتسامة التي كانت مرسومة على شفاه المتهمين لدى سماع القرار بل هتف العقيد العثماني بصوت واثق:

– يحيا السلطان!

أما والده الجنرال العثماني المتقاعد فقد هتف: الله أكبر!

أما الحفيد الشاب فقد بقي صامتا احتراما لوالده وجده.

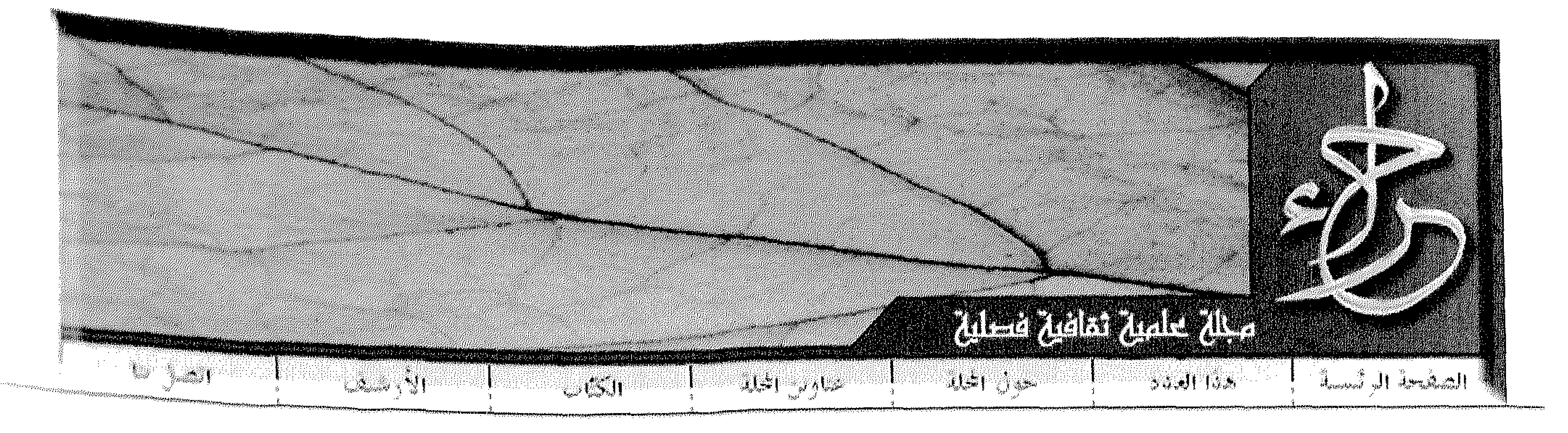
قاد الجنود المتهمين من قاعة المحكمة... وبعد فترة قصيرة سُمع أصوات طلقات أطلقها ثلة من الجنود، فقد نفذ الحكم فيهم بسرعة وبعد خروجهم من المحكمة مباشرة.

أما رئيس المحكمة فقد دمدم قائلا:

– أحضروا المتهمين الآخرين!

قال هذا وقد حول وجهه المحمر جانبا لكي لا يلتقي نظرات الصحفيين اللذين قاما تحية للمتهمين عندما مروا أمامهما إلى ساحة الإعدام وهما يحملان قبعتيهما في يديهما. ■

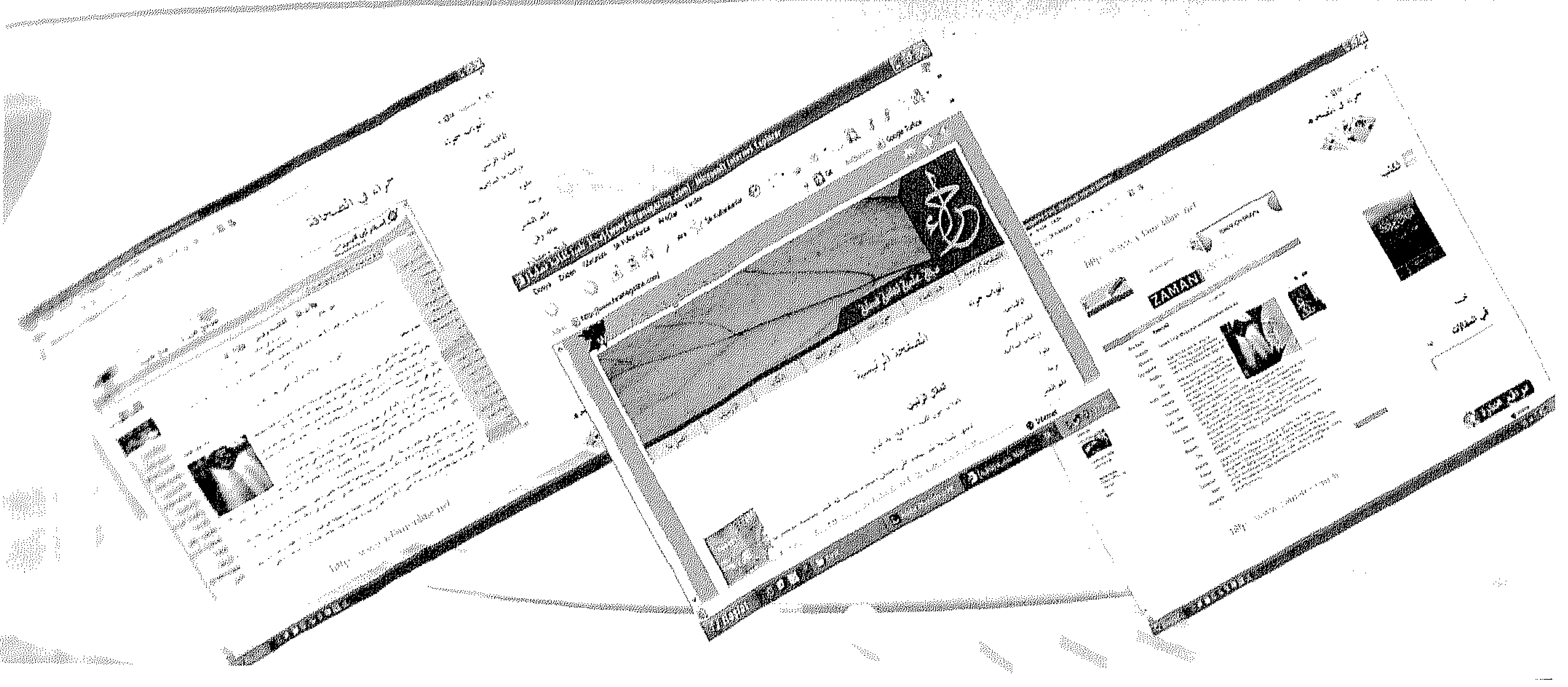
*) كاتب وباحث تركي. قصة مستلهمة من مجلة «سزنتي» التركية عدد ٣٠٨ سنة ٢٠٠٤.

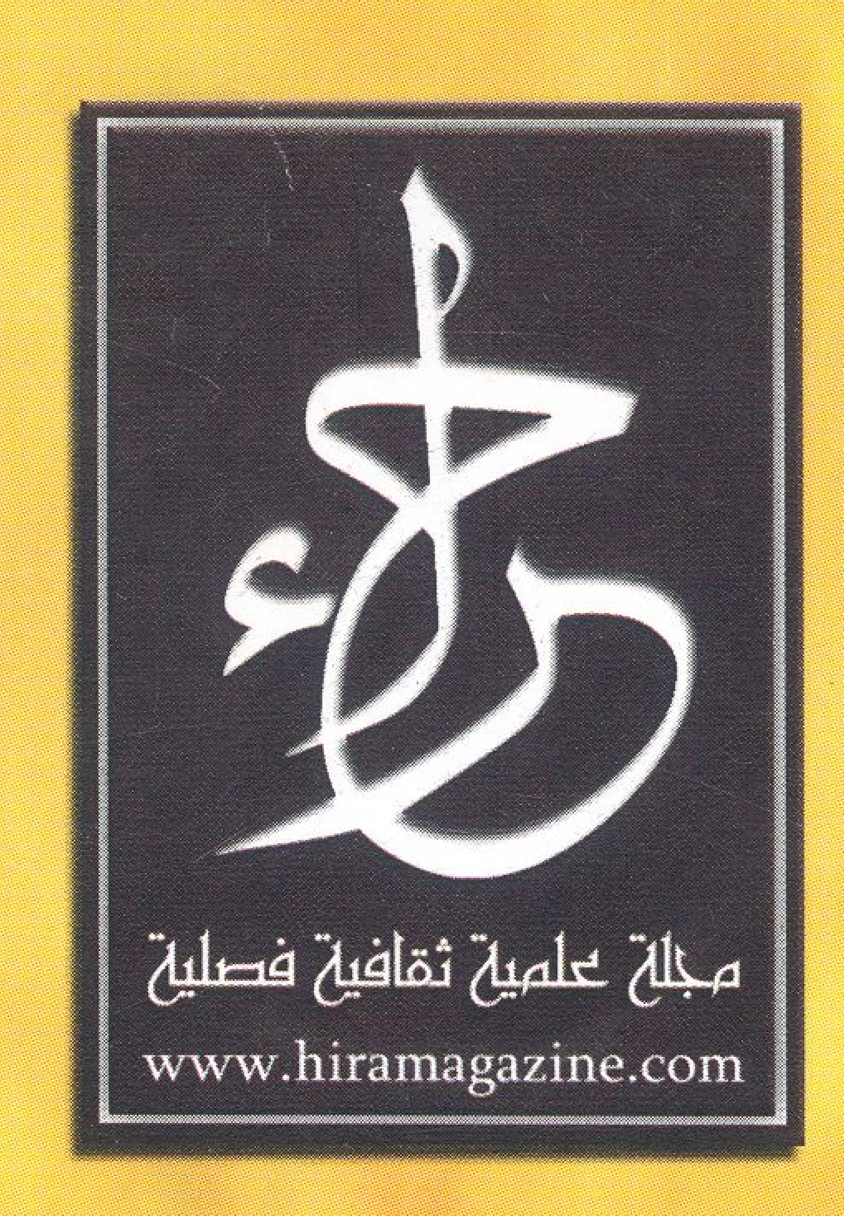


www.hiramagazine.com

- اقرأ جميع أعدادنا...
- ساهم بقلمك وإبداعك...
- اكتب تعليقاتك واقتراحاتك...
- تابع كل ما يستجد حول المجلة...

لمسة زر





يا وردة الحرمين...



يا وردة حوّلت الصحراء القاحلة إلى جنان
أشرقي على قلبي بـألوانـك السـاحرة
آن الأوان، لتكفكفي عيوني الدامـعـة
يا وردة حولت الصحراء القاحلة إلى جنان